

مَقَاصِدُ الْقُرْآنِ

أَفْقَالِ التَّدْبِيرِ وَالتَّدْبِيرِ

تَأَلِيفُ

أ.د. مَسْعُودُ أَبُو دَوْحَةَ

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

مَقَاتِلُ الْمُؤْمِنِينَ

أَفْقَالِ التَّدْبِيرِ وَالتَّدْبِيرِ

تَأْلِيفُ

أ.د. مَعْمُودُ أَبُو دَوْحَةَ

دَارُ السَّلَامِ

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة
للمنشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والتصدير

لصاحبها

عبد القادر محمود البكار

أبو دوخة، مسعود.

مقاصد القرآن: أفقا للتدبر والتدبير / تأليف

مسعود أبو دوخة - القاهرة؛ دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٢٠م.

١٨٤ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك ١ - ٤٥٤ - ٧١٧ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - مقاصد القرآن.

٢ - القرآن - مباحث عامة.

أ - العنوان. ٢٢٠

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار

الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة: القاهرة: ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع

نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع ميكوم عبيد - مدينة نصر

هاتف: ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢) (+)

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢) (+)

المكتبة: فرع الأزهر: ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي

هاتف: ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢) (+)

المكتبة: فرع مدينة نصر: ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي

أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر.

هاتف: ٢٠٨٠٢٨٧٦ (٢٠٢) (+) فاكس: ٢٠٨٠٢٦٨٠ (٢٠٢) (+)

المكتبة: فرع الإسكندرية: ١٢٧ شارع الإسكندرية الأكبر - الشاطبي بجوار

جمعية الشبان المسلمين. هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣) (+)

بريدنا: القاهرة: ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩



البريد الإلكتروني: info@daralsalam.com

مكتبتنا على الإنترنت: www.daralsalam.com

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام

١٩٧٣م وحصلت

على جائزة أفضل

ناشر للتراث لثلاثة

أعوام متتالية

١٩٩٩، ٢٠٠٠، ٢٠٠١م

هي عشر الجائزة

تتويجاً لعقد ثالث

مضى في صناعة

النشر حينها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَهْرُسُ الْمُحْتَوَيَاتِ

مقدمة ٩

الفصل الأول

مقاصد القرآن عند القدماء والمحدثين ١٣

* أولاً: مقدمات لا بد منها ١٥

١ - المقاصد في اللغة والاصطلاح ١٥

٢ - مصطلحات دالة على معنى المقاصد ١٩

٣ - مقاصد الشريعة ومقاصد القرآن ٢٤

٤ - مقاصد السور ومقاصد القرآن ٢٩

* ثانياً: تصنيفات العلماء لمقاصد القرآن ٤٢

١ - مقاصد القرآن عند أبي حامد الغزالي ٤٢

٢ - مقاصد القرآن عند رشيد رضا ٤٩

٣ - مقاصد القرآن عند عبد العظيم الزرقاني ٥١

٤ - مقاصد القرآن عند محمود شلتوت ٥٣

٥ - مقاصد القرآن عند محمد الطاهر ابن عاشور ٥٥

٦ - مقاصد القرآن عند محمد الغزالي ٥٩

٧ - مقاصد القرآن عند محمد الصالح الصديق ٦٠

- ٨ - مقاصد القرآن عند يوسف القرضاوي ٦٣
- ٩ - مقاصد القرآن عند عبد الكريم حامدي ٦٦
- ١٠ - مقاصد القرآن عند طه جابر العلواني ٦٩
- * ثالثاً: خلاصات ونتائج ٧٢

الفصل الثاني

٨٣ مقاصد القرآن بين التدبّر والتدبير

- تمهيد ٨٥
- * أولاً: معالم المنهج المقاصدي في التدبّر ٨٦
- ١ - التدبّر بين إفراط وتفریط ٨٦
- ٢ - معالم المنهج المقاصدي وفوائده ٨٩
- أ - المقاصد والتدبّر ٨٩
- ب - النظرة الشاملة للقرآن ٩١
- ج - النظرة المتوازنة إلى حقائق الدين ٩٢
- * ثانياً: نحو استثمار للمنهج المقاصدي في التدبّر ٩٦
- ١ - التدبر المقاصدي وفاعلية الإيمان ٩٧
- أ - العقيدة بين الجدل العقلي والتفاعل الوجداني ٩٧
- ب - المنهج القرآني في عرض العقيدة ٩٨
- ج - أثر العقيدة في السلوك ١٠٢
- د - المعاد جزء من العقيدة ١٠٤

- ٢ - التدبّر المقاصديّ وروح الشريعة ١٠٦
- أ - الشريعة من مقتضيات العقيدة ١٠٦
- ب - خطر الفصل بين الإيمان والعمل ١٠٨
- ٣ - التدبّر المقاصديّ ومركزية الأخلاق ١١٠
- أ - الأخلاق غاية الدين ١١٠
- ب - الأخلاق عنوان التوحيد ١١١
- * ثالثاً: مقاصد القرآن من التدبّر إلى التدبير ١١٤
- ١ - مقاصد القرآن وسنن العمران ١١٤
- ٢ - مقاصد القرآن ومشكلات الحضارة والإنسان ١٢٠
- * رابعاً: خلاصات وفوائد ١٢٥

الفصل الثالث

- ١٢٩ حقوق الإنسان من مقاصد القرآن
- تمهيد ١٣١
- * أولاً: مقاصد القرآن وأسس حقوق الإنسان ١٣٦
- ١ - تكريم الإنسان ١٣٦
- ٢ - حرّية الإنسان ١٣٨
- ٣ - المساواة والعدل بين الناس ١٤١
- * ثانياً: مقاصد القرآن ومجالات حقوق الإنسان ١٤٣
- ١ - الحقوق الفكرية والعقلية ١٤٤

٢ - الحقوق الاجتماعية	١٤٧
أ - محاربة الطبقية	١٤٨
ب - تحرير الرق	١٤٩
ج - صون كرامة المرأة	١٥١
٣ - الحقوق الاقتصادية	١٥٣
أ - العمل وتكافؤ الفرص	١٥٥
ب - التملك ومقصد حفظ المال	١٥٦
٤ - الحقوق السياسية	١٥٨
أ - الشورى .. حق وضرورة	١٥٩
ب - المعارضة وحرية التعبير	١٦١
ج - المواطنة ووحدة الجنسية السياسية	١٦٢
* ثالثاً: مقاصد القرآن وضمانات حقوق الإنسان	١٦٥
١ - عقيدة التوحيد	١٦٦
٢ - مكارم الأخلاق	١٦٨
٣ - الحدود والعقوبات	١٦٩
خاتمة	١٧١
فهرس المراجع	١٧٣
نبذة عن المؤلف	١٧٩

الهدوء

إلى روح شيخنا محمد الغزالي
داعيةً ومجدِّداً وأديباً

د. مسعود أبو دوحة

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي ختم الكتب السماوية بالقرآن العظيم،
وهدى الناس بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، والصلاة
والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، أما بعد:
فهذه مباحث تتعلّق بمقاصد القرآن الكريم، توزّعت على
فصول ثلاثة:

✽ فأما الفصل الأول فتضمّن رصدًا لجهود العلماء
والدارسين وإسهاماتهم في استنباط مقاصد القرآن الكريم
قديمًا وحديثًا، ومتابعةً لتطوّر موضوع البحث في مقاصد
القرآن، والوقوف على أهم محطاته التاريخية. وكانت غايتنا
من ذلك استخلاص الصورة التي انتهت إليها البحث في
مقاصد النص القرآني، واستشراف المعالم التي يمكن أن
تقود إلى آفاق جديدة في التعامل مع القرآن الكريم انطلاقًا
من المنظور المقاصدي.

✽ وأما الفصل الثاني فكان امتدادًا لسابقه؛ حيث انصبَّ
اهتمامنا فيه على تبيان أثر الإمام بمقاصد القرآن في حسن
التدبّر والتدبير. وسعينا من خلال ذلك إلى استخلاص
الآفاق التي يفتحها تمثّل مقاصد القرآن الكريم، واستشراف
المعالم التي يمكن أن تقود إلى منهج رصين في التعامل مع
القرآن الكريم. فمن شأن المنهج المقاصدي أن يعمّق الفهم

ويُثري الدلالة ويرصد المعنى المراد، ثم هو بعد ذلك يثمر تصوُّراً سليماً متوازناً لقضايا العقيدة، ويجعل هذه العقيدة حيَّة في نفس الفرد فاعلة مؤثرة، يعيش في ظلالها روح العبادات، ويتخلَّق بالخلق القويم في حياته كلّها. ولا شك أن واقع المسلمين اليوم ناطق بحاجتهم الماسّة إلى تمثُّل هذه المعاني، واستثمار الأبعاد التي ينطوي عليها الكتاب العزيز للانطلاق به إلى الآفاق، ووصل ما انقطع من شهود حضاري.

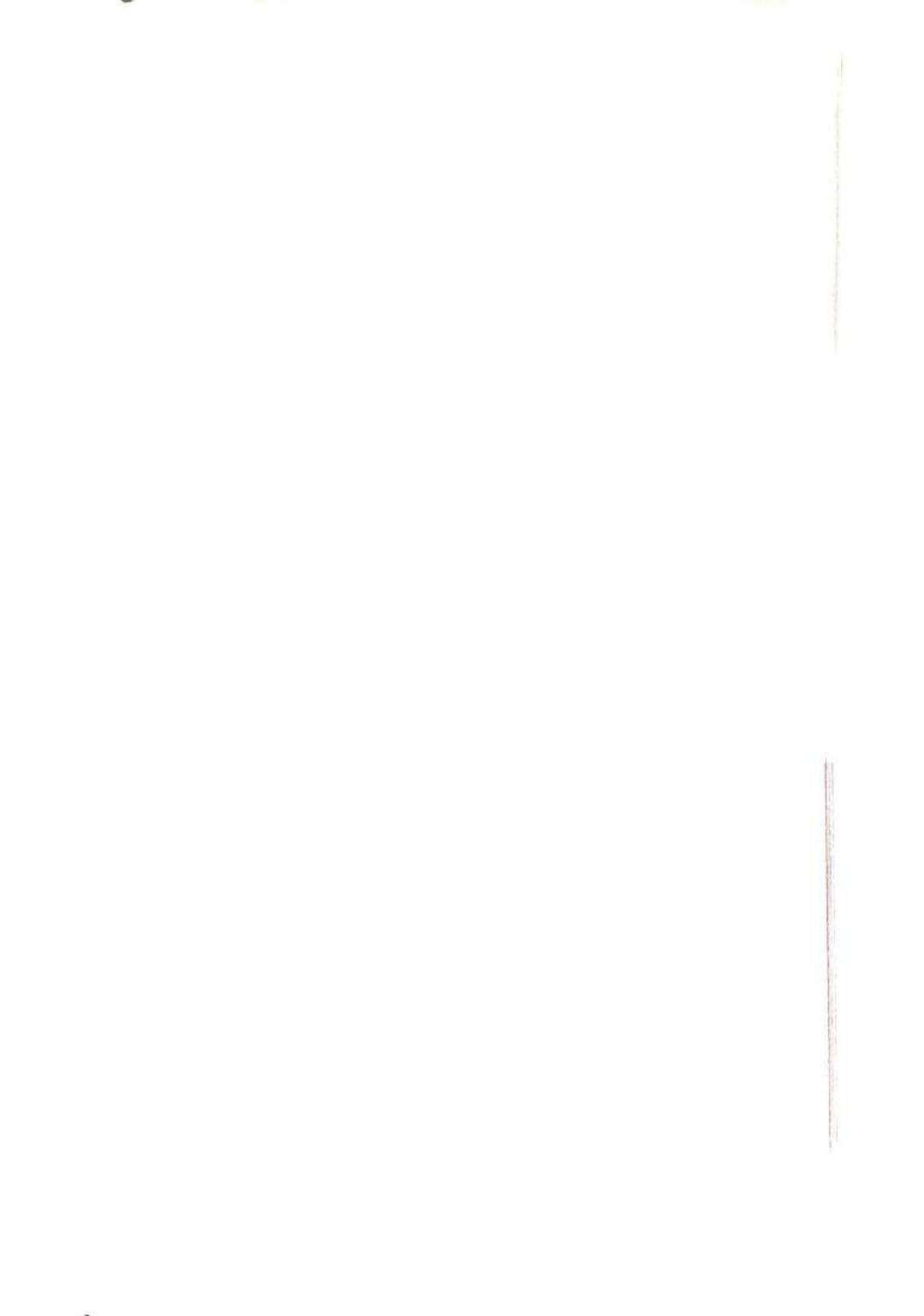
* وأما الفصل الثالث فهو أقرب إلى الدراسة التطبيقية لمقاصد القرآن، كانت غايتنا فيه أن نبرز معالم المنظومة الإسلامية لحقوق الإنسان من منظور مقاصد القرآن. وما أنسب موضوع المقاصد بقضايا حقوق الإنسان وما تمتد إليه من مسائل ومشكلات، وإذا كانت حقوق الإنسان في الإسلام تقوم على مجموعة من الأسس والركائز التي توطَّد أركانها وتوطَّرها؛ كالكرامة الإنسانية، والحرية، والمساواة، فإن أهمَّ ما يميِّز المنظومة القرآنية لحقوق الإنسان أنها لم تكتفِ بتقرير هذه الحقوق في عبارات ومراسيم نظرية. بل شرَّعت من الضمانات ما يكفل تطبيقها، ويحول دون هدرها أو الاستهانة بها، وفي مقدّمة هذه الضمانات عقيدة التوحيد، ومكارم الأخلاق، ثم نظام الحدود والعقوبات.

واللَّه أسأل أن يتقبل هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم،

وأن يجعله علمًا ينتفع به في الدنيا، ويكون لنا ذخراً يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الرابع من رمضان ١٤٣٩ هـ
العلمة في:
الموافق العشرين من مايو ٢٠١٨ م

د. مسعود أبو دوحة



الفصل الأول

مقاصد القرآن عند القدماء والمحدثين

أولاً:

مقدمات لا بد منها

١ - المقاصد في اللغة والاصطلاح:

المقاصد لغةً:

جاء في معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس: « القاف والصاد والذال أصول ثلاثة، يدلُّ أحدها على إتيان شيء وأَمُّه، والآخر على كسر وانكسار، والآخر على اكتناز في الشيء، فالأصل: قصده قصداً ومقصداً، ومن الباب: أقصده السهم، إذا أصابه فقتل مكانه، وكأنه قيل ذلك؛ لأنه لم يجد عنه، قال الأعشى:

فَأَقْصَدَهَا سَهْمِي وَقَدْ كَانَ قَبْلَهَا

لَأَمْثَالِهَا مِنْ نِسْوَةِ الْحَيِّ قَانِصَا»^(١)

وفي مختار الصحاح: « القصد: إتيان الشيء، تقول: قصده وقصد له، وقصد إليه، كله بمعنى واحد»^(٢).

وفي معجم لسان العرب: « ... والقَصْدُ: الاعتمادُ والأَمُّ، قَصَدَهُ يَقْصِدُهُ قَصْداً، وَقَصَدَ لَهُ، وَأَقْصَدَنِي إِلَيْهِ الأَمْرُ، وَهُوَ قَصْدُكَ وَقَصْدُكَ: أَي تَجَاهُكَ ... والقَصْدُ: إتيان الشيء،

(١) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (قصد).

(٢) محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، مادة (قصد).

تقول: قَصَدْتُهُ وقَصَدْتُ لَهُ وقَصَدْتُ إِلَيْهِ بمعنى... وقَصَدْتُ قَصْدَهُ: نَحَوْتُ نَحْوَهُ... قال ابن جني: أَصْل (ق ص د) ومواقعها في كلام العرب الاعتزام والتوجه والنهوض والنهوض نحو الشيء على اعتدال كان ذلك أو جَوْر. هذا أصله في الحقيقة، وإن كان قد يخص في بعض المواضع بقصد الاستقامة دون الميل، ألا ترى أنك تَقْصِدُ الْجَوْرَ تارة كما تقصد العدل أخرى؟ فالاعتزام والتوجه شامل لهما جميعاً^(١).

ويمكن أن نخلص من هذه التعريفات إلى أن مادة (قصد) تأخذ معاني كثيرة، ولكن أصل معانيها أُمُّ الشيء، وإتيانه، والتوجه إليه، وهذا هو المعنى الذي يتصل بمصطلح المقاصد، من حيث إن مقصد الحكم أو القول هو الغاية والحكمة التي يتوجه إليها الحكم، والمعنى الذي يُؤَمُّ ويُرَادُّ من القول، وقد يأخذ مقصد القول معنى القضية أو القضايا التي يراد تقريرها بهذا القول.

مقاصد القرآن اصطلاحاً:

لا نجد عند القدماء تعريفاً لمقاصد القرآن، وإنما وردت إشارات متفرقة إليها بين ثنايا المباحث المقاصدية بمعناها التشريعي، كقول العز بن عبد السلام: «ومعظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب

(١) ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، مادة (قصد).

المفاسد وأسبابها»^(١).

ولكن بعض العلماء استخدموا مصطلح « مقاصد القرآن » للدلالة على المحاور الكبرى والقضايا الأساسية التي دارت عليها سورة وآياته.

فمن هؤلاء: أبو حامد الغزالي في قوله: « انحصرت مقاصد سور القرآن وآياته في ستة أنواع ... »^(٢).

وقال الرازي: « إن مقاصد القرآن التوحيد، والأحكام الشرعية، وأحوال المعاد »^(٣).

وقال السيوطي في الإتقان: « ... ولما كانت سورة الفاتحة هي مطلع القرآن فإنها مشتملة على جميع مقاصده ... فبها في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن »^(٤).

وقال الألوسي: « إن مقاصد القرآن: التوحيد، والأحكام الشرعية، وأحوال المعاد »^(٥).

فلفظ « المقاصد » هنا صريح الدلالة على المحاور والقضايا الأساسية التي ثمنها القرآن الكريم.

أما المحدثون فلم يكد اهتمامهم بمقاصد القرآن يستقل

(١) عز الدين بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١ / ١٠).

(٢) أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن (ص ٢٣).

(٣) تفسير الفخر الرازي (٢٤٩ / ٣٠).

(٤) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن (ص ٦٩٠).

(٥) شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٢٤٩ / ٣٠).

عن اهتمامهم بمقاصد الشريعة، وقد تحدث بعضهم عن مقاصد القرآن العامة، ومن بينهم الأستاذ علال الفاسي الذي تحدث عن مقاصد نزول القرآن بقوله: « والقصد العام من نزول القرآن هو هداية الخلق، وإصلاح البشرية، وعمارة الأرض »^(١).

وحاول ابن عاشور إجمال مقاصد القرآن الكريم، فذهب إلى أن القرآن أنزله الله - تعالى - كتاباً لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم، فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية^(٢).

وعرف عبد الكريم حامدي مقاصد القرآن بأنها: « الغايات التي أنزل القرآن لأجلها تحقيقاً لمصالح العباد، فالغايات المراد بها المعاني والحكم المقصودة من إنزال القرآن، وهذه الغايات تهدف إلى تحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل »^(٣).

- ونلاحظ على هذه التعريفات أمرين اثنين:

أولهما: تأثرها بمقاصد الشريعة؛ ولهذا نجدتها تدور على مبدأ تحقيق المصلحة ودفع المفسدة.

وثانيهما: تركيزها على المقصد العام للقرآن (الهداية

(١) علال الفاسي، مقاصد الشريعة ومكارمها (ص ٨٨).

(٢) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير (١/ ٣٨).

(٣) عبد الكريم حامدي، مقاصد القرآن من تشريع الأحكام (ص ٢٩).

وتحقيق الصلاح)، وعدم التفاتها إلى المقاصد الخاصة التي تعني القضايا والمحاور التي دارت عليها سور القرآن الكريم. وحتى التعريف الأخير لعبد الكريم حامدي - وهو الوحيد الذي حاول صياغة تعريف لمقاصد القرآن - تناول المقاصد بمعنى الغايات والحكم، لا بمعنى المحاور والقضايا.

والحق أن مصطلح «المقاصد» يأخذ معاني شتى ويلتبس بمفاهيم ومصطلحات أخرى بحسب السياق الذي يستعمل فيه، فقد يعني:

- الأهداف التشريعية والتربوية للشريعة الإسلامية، أو الحكم والأسرار التشريعية، أو المصالح (الكليات الخمس).

- المعاني العامة والمحاور الكبرى للقرآن الكريم أو النصوص عامة، ومعنى هذا أن المفهوم الذي تأخذه المقاصد مع الشريعة يختلف عن مفهومها مع القرآن، وعلى الرغم من التقاطعات التي يمكن أن تحدث بينهما فإنهما مختلفان.

وبناء على ما تقدم يمكننا تعريف «مقاصد القرآن الكريم» بأنها: القضايا الأساسية والمحاور الكبرى التي دارت عليها سور القرآن الكريم وآياته، تعريفاً برسالة الإسلام، وتحقيقاً لمنهجه في هداية البشر.

٢ - مصطلحات دالة على معنى المقاصد:

وقد استخدم بعض العلماء والمفسرين مصطلحات

أخرى للدلالة على مقاصد القرآن، وأهم هذه المصطلحات: « علوم القرآن »، « وأقسام القرآن »، « ومطالب القرآن ».

وفيما يأتي عرض لبعض السياقات التي استعملت فيها هذه الألفاظ عند أولئك العلماء:

- علوم القرآن:

استخدم مصطلح « العلوم » أو « علوم القرآن » للدلالة على معنى المقاصد.

يقول الرازي: « المقصود من جميع الكتب الإلهية: علم الأصول والفروع والمكاشفات، وقد بينّا أن هذه السورة (الفاتحة) مشتملة على تمام الكلام في هذه العلوم الثلاثة »^(١).

وجاء في تفسير القرطبي لسورة الفاتحة: « ... وهي خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن »^(٢). وقال في سبب تسميتها القرآن العظيم: « سُميت بذلك لتضمّنها جميع علوم القرآن »^(٣).

وقال البيضاوي في تفسيره: « ... علوم القرآن منها ما هي حكمة كالعقائد والشرائع، ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار عن المغيبات »^(٤). فقد أشار البيضاوي بهذا إلى

(١) فخر الدين الرازي، التفسير الكبير (١ / ١٨٤).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١ / ١٧١).

(٣) المرجع نفسه (١ / ١٧٣).

(٤) حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي (٣ / ٤٨٤).

مقاصد القرآن الكبرى، وهي: العقائد والشرائع والقصص.
ونقل الثعالبي في تفسيره عن ابن العربي قوله: «اعلم أنَّ
علوم القرآن ثلاثة أقسام: توحيد، وتذكير، وأحكام»^(١).
وفي البرهان للزركشي: «وأمُّ علوم القرآن ثلاثة أقسام:
توحيد وتذكير وأحكام»^(٢).

ونقل السيوطي في الإتقان عن بعض العلماء قوله: «أنزل
الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة منها التوراة
والإنجيل والزبور والفرقان، ثم أودع علوم التوراة والإنجيل
والزبور والفرقان القرآن، ثم أودع علوم القرآن المفصل، ثم
أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب»^(٣).

وقد وجه ذلك بأن العلوم التي احتوى عليها القرآن
وقامت بها الأديان أربعة: علم الأصول؛ ومداره على
معرفة الله وصفاته، ومعرفة المعاد، وعلم العبادات، وعلم
السلوك، وعلم القصص، فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد
القرآن^(٤).

– أقسام القرآن:

استخدم أبو حامد الغزالي مصطلح «الأقسام» في كتابه

(١) الثعالبي عبد الرحمن، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ٣٠٠).

(٢) الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن (ص ١٧/ ١).

(٣) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن (ص ٦٩٠).

(٤) المرجع نفسه (ص ٦٩٠).

(جواهر القرآن) وعنى به مقاصد القرآن، فقال بعد أن أورد مقاصد القرآن الستة: « وإن جَمَعَتِ الأقسام الستة المذكورة مع شعبها المقصودة في سلك واحد ألفيتها عشرة أنواع: ذكر الذات، وذكر الصفات، وذكر الأفعال، وذكر المعاد، وذكر الصراط المستقيم - أعني جانبي التزكية والتحلية - وذكر أحوال الأولياء، وذكر أحوال الأعداء، وذكر محاجة الكفار، وذكر حدود الأحكام »^(١).

وقال عن سورة الفاتحة: « وقد اشتملت الفاتحة من الأقسام العشرة على ثمانية أقسام »^(٢).

وقال في موضع آخر من كتابه (الجواهر): « الأقسام الثلاثة التي ذكرناها في مهمات القرآن هي: معرفة الله تعالى، ومعرفة الآخرة، ومعرفة الصراط المستقيم »^(٣).

وقد استخدم بعض العلماء - بعد الغزالي - مصطلح « أقسام القرآن » ولكنه ورد عندهم للدلالة على ما يمكن أن نسميه: أساليب الخطاب القرآني، كالقرطبي الذي قال في تفسير السبع المثاني: « وقيل: المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن من الأمر، والنهي، والتبشير، والإنذار، وضرب الأمثال، وتعدد نَعَم، وأنباء قرونٍ »^(٤).

(١) أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن (ص ٣٤).

(٢) المرجع نفسه (ص ٧٠).

(٣) المرجع نفسه (ص ٧٨).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢ / ٢٥٢).

فعلى الرغم من تطابق عدد ما ذكره القرطبي من الأقسام مع عدد السبع المثاني فإن تلك الأساليب لا تنحصر بالضرورة في السبعة المذكورة. ويمكن أن نستنبط منها ثلاثة من المقاصد على الأقل؛ فالأمر والنهي يدلان على مقصد التشريع، والتبشير والإنذار إشارة إلى المعاد، وأنباء القرون هي القصص.

- مطالب القرآن:

وقد استخدم بعض العلماء هذا المصطلح للدلالة على مقاصد القرآن، فقال فخر الدين الرازي: « المقصود من جميع الكتب الإلهية علم الأصول والفروع والمكاشفات. وقد بينا أن هذه السورة (الفاتحة) مشتملة على تمام الكلام في هذه العلوم الثلاثة، فلما كانت هذه المطالب العالية الشريفة حاصلة فيها لا جرم كانت كالمشتملة على جميع المطالب الإلهية »^(١).

وقال الإمام البقاعي في تفسيره لسورة الأعراف: « ... لَمَّا بَيَّنَّ التَّوْحِيدَ وَالنَّبُوَّةَ وَالْقَضَاءَ وَالْقَدْرَ، أَتْبَعَهُ الْمَعَادَ لِتَكْمِلَ الْمَطَالِبَ الْأَرْبَعَةَ الَّتِي هِيَ أَمْهَاتُ مَطَالِبِ الْقُرْآنِ »^(٢).

وهكذا فإن هذه المصطلحات الثلاثة (علوم القرآن، وأقسام القرآن، ومطالب القرآن) استخدمت من قبل بعض العلماء

(١) فخر الدين الرازي، التفسير الكبير (١ / ١٨٤).

(٢) برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨ / ١٨٥).

في معنى يقارب أو يطابق معنى مصطلح « مقاصد القرآن »، ولكننا نرى أن مصطلح « المقاصد » أولها بالاستعمال وأوفاهها بالغرض؛ ذلك أن المصطلحات الأخرى استقل أحدها وهو مصطلح « علوم القرآن » بمعان كلية، فأصبح يعني عامة المباحث المتصلة بالقرآن، ومصطلح « أقسام القرآن » عام الدلالة على أي تقسيم للقرآن الكريم، كتقسيمه إلى مكي ومدني، ومحكم ومتشابه، وغيرها من التقسيمات. أما مصطلح « المطالب » فلم يشع استخدامه شيوع مصطلح « المقاصد »، وليست له دلالة، ومن ثم فضلنا استخدام لفظ « المقاصد » لدلالته على الغرض، ولشيوع استعماله عند القدماء والمحدثين على السواء.

٣ - مقاصد الشريعة ومقاصد القرآن:

لقد نال البحث في مقاصد الشريعة أضعاف ما ناله البحث في مقاصد القرآن، على الرغم من أن الإمام الغزالي الذي فتح باب التأليف في مقاصد الشريعة، قد كتب أيضًا في مقاصد القرآن منذ ذلك الوقت^(١).

ولكن موضوع مقاصد القرآن لم يلقَ الاهتمام الكافي من قبل بعض الباحثين؛ حيث نجد التركيز على المقاصد بمنحهاها التشريعي، حتى كاد مفهوم المقاصد يلتبس بمفهوم المصالح.

(١) وذلك في كتابه (جواهر القرآن).

وقد تعرض الإمام الغزالي إلى بعض ما يتعلق بأصل المقاصد الشرعية، وأوضح ضرورة رعاية المقاصد وربط الأحكام بها عند النظر الفقهي، كما اشتمل كتابه (إحياء علوم الدين) على ذكر كثير من الحكم والعلل التي تتعلق بها الأحكام^(١).

وبنى المتأخرون كالعز بن عبد السلام والشاطبي مباحثهم في المقاصد على ما ذكره الغزالي^(٢).

وفي العصر الحديث عاد الاهتمام بالمقاصد فألف فيها الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور كتابه (مقاصد الشريعة الإسلامية). وكتب الأستاذ علال الفاسي في الموضوع (مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها)، وجملة من المقالات للدفاع عن الشريعة وبيان أنها تدور على مصالح العباد، ثم توالى التأليف في الموضوع من قبل العلماء والباحثين^(٣).

وهكذا كان البحث في مقاصد الشريعة هو الذي هيمن على البحث المقاصدي، تعريفاً وتقسيماً وبحثاً.

ومن تقسيمات العلماء للمقاصد تقسيمهم لها بحسب قطعيتها أو ظنيتها إلى مقاصد قطعية وظنية ووهمية^(٤).

كما قسموها إلى كلية وبعضية؛ فالمقاصد الكلية هي التي

(١) ينظر: يوسف حامد العالم، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية (ص ٥).

(٢) المرجع نفسه (ص ٥).

(٣) المرجع نفسه (ص ٦).

(٤) نور الدين بن مختار الخادمي، علم المقاصد الشرعية (ص ٧٣).

تعود على عموم الأمة كافة، أو أغلبها، والمقاصد البعضية هي العائدة على بعض الناس بالنفع والخير^(١).

وقسموها باعتبار الأصالة والتبعية إلى مقاصد أصلية ومقاصد تابعة؛ المقاصد الأصلية وهي التي ليس فيها حظ للمكلف، ومثالها: أمور التعبُّد غالباً، والمقاصد التابعة وهي التي فيها حظ للمكلف، ومثالها الزواج والبيع^(٢). فالتقسيمات السابقة للمقاصد متعلقة كلها بمقاصد الشريعة، حتى غدا لفظ المقاصد إذا أُطلق دَلَّ على مقاصد الشريعة دون غيرها.

وعلى الرغم من وجود بعض التقاطعات والمساحات المشتركة بين مقاصد الشريعة ومقاصد القرآن، وكون القرآن الكريم هو كتاب الشريعة ومصدرها الأول^(٣). فإننا مُلْزَمُونَ من الناحية العلمية والمنهجية بالتفريق بين النوعين؛ فمقاصد القرآن من حيث المفهوم والمجال ليست منحصرةً في المقاصد الشرعية (بمعناها التشريعي الفقهي)، وتختلف عنها؛ فإذا كانت مقاصد الشريعة عند العلماء هي « المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، كحفظ النظام، وجلب المصالح، ودرء المفاسد، وإقامة المساواة بين الناس، وجعل الشريعة مهابة مطاعة

(١) نور الدين بن مختار الخادمي، علم المقاصد الشرعية (ص ٧٤).

(٢) المرجع نفسه (ص ٧٤).

(٣) عبد الكريم حامدي، مقاصد القرآن من تشريع الأحكام (ص ٣١ - ٣٤).

نافذة، وجعل الأمة قوية مرهوبة الجانب مطمئنة البال ...»^(١).
وأنها « الغاية من الشريعة، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها »^(٢). فإن مقاصد القرآن تعني المحاور الكبرى والقضايا العامة التي جاء القرآن الكريم لتقريرها، وبذلك تغدو مقاصد الشريعة جزءاً من مقاصد القرآن، إذ التشريع والأحكام جزء من القرآن الكريم وليست كل القرآن؛ ولا يمكن حصر الكلي في الجزئي.

وهكذا فإنه ينبغي أن نفرق بين مفهومين للمقاصد: المقاصد بمعنى الحكم والأسرار، وهو مجال المقاصد الشرعية، والمقاصد بمعنى المحاور والقضايا العامة، وهو مجال مقاصد القرآن.

وإذا قصرنا الشريعة على الأحكام - وفق المفهوم الذي تقابل به العقيدة - فإنها تغدو مقصداً واحداً من مقاصد القرآن؛ هو مقصد التشريع.

وإذا كان أكثر الباحثين يمزجون مقاصد القرآن بمقاصد الشريعة من منطلق كون القرآن الكريم هو مصدر الشريعة الأول، فإن المنهج العلمي يقتضي منا التفريق بين مقصد القول (معناه وموضوعه)، ومقصد الحكم (سره وحكمته وعلته والمصلحة المتوخاة منه)، ولا شك أن مقصد الحكم متضمن

(١) أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي (ص ١٤).

(٢) المرجع نفسه (ص ١٤).

في مقصد القول بالنسبة إلى القرآن الكريم؛ إذ الخطاب القرآني ليس كله أحكاماً شرعية (بالمعنى الفقهي)، ودليل ذلك أن آيات الأحكام معدودة ومحددة.

ولا شك أن لمعرفة مقاصد القرآن أهمية كبيرة في التفسير، ذلك أن توجيه المعنى أو الترجيح بين الدلالات المختلفة، أو استنباط الأحكام والأبعاد المختلفة للنص يعتمد على الإلمام بالمقاصد العامة من قبل المفسر، وما المعاني والدلالات التي تواجه المفسر أو المستنبط إلا تفرعات عن أصول تمثلها المقاصد.

وقد أدرك كثير من العلماء هذه الحقيقة وألحوا على لزوم الإلمام بالمقاصد بالنسبة إلى المفسر، فهذا الإمام الشاطبي يعد الاهتمام بمقاصد القرآن أساس التدبر والاستنباط؛ حيث قال في سياق الرد على من زعم أن للقرآن ظاهراً وباطناً: « ... وإذا حصل التدبر لم يوجد في القرآن اختلاف البتة... فالتدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد، وذلك ظاهر في أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن فلم يحصل منهم تدبر »^(١).

وهكذا فإن « المقاصد » بالنسبة إلى المفسر هي البوصلة التي تهديه إلى أقرب المعاني والدلالات، وتعصمه من أن يذهب بعيداً عن ما يتطلبه التوجيه والتأويل، وما يستدعيه التفسير والاستنباط.

(١) أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة (٤ / ٢٠٩).

٤ - مقاصد السور ومقاصد القرآن:

لقد تحدث بعض المفسرين عن مقاصد القرآن في سياق تفسير سور بعينها، ذلك أن تفسير بعض السور التي وردت الأحاديث في فضلها، وكونها تعدل قدرًا من القرآن كان مناسبة للحديث عن مقاصد القرآن الكريم عند هؤلاء، وذلك بالتأمل في أغراض تلك السور ومقاصدها، والمقارنة بينها وبين مقاصد القرآن عامة، وأبرز هذه السور هي: الفاتحة، والزلزلة، والكافرون، والإخلاص، والتكاثر. ومن المفسرين الذين عرضوا لعلاقة هذه السور بمقاصد القرآن: الرازي، والسيوطي، والألوسي، وسيد قطب:

أ - فخر الدين الرازي:

سورة الفاتحة:

تعد سورة الفاتحة أهم السور التي استوقفت المفسرين بحثًا عن أوجه تضمنها لمقاصد القرآن ومعانيه على اعتبار أنها أم القرآن، وفاتحته التي لا يجزئ عن قراءتها في الصلاة شيء من القرآن. ولذلك نجد ما يشبه الإجماع عند العلماء على تضمنها عامة مقاصد القرآن، وإن اختلف توجيههم لهذا التضمن، يقول الرازي: «المقصود من جميع الكتب الإلهية علم الأصول والفروع والمكاشفات، وقد بينا أن هذه السورة (الفاتحة) مشتملة على تمام الكلام في هذه العلوم الثلاثة، فلمّا كانت هذه المطالب العالية الشريفة حاصلة فيها لا جرم

كانت كالمشتملة على جميع المطالب الإلهية»^(١).

وقد فصل الرازي مقاصد القرآن التي تضمنتها الفاتحة في موضع آخر فجعلها أربعة: الإلهيات، والمعاد، والنبؤات، وإثبات القضاء والقدر لله تعالى.

ووجه تضمن الفاتحة لهذه المقاصد برأي الرازي أن قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ [الفاتحة: ٢، ٣] يدل على الإلهيات، وقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] يدل على المعاد، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] يدل على نفي الجبر والقدر، وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره، وقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٢) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ [الفاتحة: ٦، ٧] يدل أيضا على إثبات قضاء الله وقدره وعلى النبؤات... فلما كان المقصد الأعظم من القرآن هذه المطالب الأربعة، وكانت السورة مشتملة عليها لُقِّبَتْ بأَمِّ الْقُرْآنِ»^(٢).

ونلاحظ من هذا التقسيم لمقاصد القرآن أن الرازي جعلها دائرة على العقائد، ولم يذكر ميدان التشريع، ويمكن أن نلمس إشارة إلى هذا الجانب التشريعي في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ لأن الصراط المستقيم هو نهج يتحدد بعد الاعتقاد بالتزام الأوامر

والنواهي، والآداب والأخلاق^(١).

سورة الإخلاص:

ثبت في الأحاديث أن هذه السورة تعدل ثلث القرآن، وقد وجه الرازي هذا الأمر بأن المقصود الأشرف من جميع الشرائع والعبادات معرفة ذات الله، ومعرفة صفاته، ومعرفة أفعاله، وهذه السورة مشتملة على معرفة الذات، فكانت هذه السورة معادلة لثلث القرآن.

فمقصد القرآن الأعظم - بحسب هذا التقسيم - هو معرفة الله ﷻ، وقد أكد الرازي هذا التوجيه حين ذهب إلى أن القرآن كله صَدَف، و دُرُّهُ هو قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]؛ ولذلك حصل لسورة الإخلاص هذا الفضل بتضمنها هذا المعنى.

وهذا التقسيم يؤكد أن العقيدة هي أصل الشريعة والأحكام، ورأس المقاصد كلها الاعتقاد، وذروة سنام الاعتقاد معرفة الله ﷻ: ذاته، وصفاته، وأفعاله^(٢).

سورة الكافرون:

روي أن من قرأها فكأنما قرأ ربع القرآن، والوجه فيه - كما قال الرازي - أن القرآن مشتمل على الأمر بالمأمورات والنهي

(١) المرجع نفسه (١/ ١٧٩).

(٢) المرجع نفسه (٣٢/ ١٧٦).

عن المحرمات، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بالقلوب وإلى ما يتعلق بالجوارح، وهذه السورة مشتملة على النهي عن المحرمات المتعلقة بأفعال القلوب فتكون ربعا للقرآن.

ونحن نرى أن مقاصد القرآن لا يمكن أن تقتصر على الأوامر والنواهي، ثم إن هذه السورة لا تتعلق بالنواهي، بل هي متعلقة بالعقيدة، ولعل هذا هو وجه كونها تعدل ربع القرآن؛ فإذا اعتبرنا مقاصد القرآن العامة هي: التوحيد، والمعاد، والقصص، والتشريع، فإن سورة الكافرون تضمنت القصد الأول وهو التوحيد من خلال تخليص عقيدة التوحيد من شوائب الكفر والشرك وما إليهما.

ب - عند جلال الدين السيوطي:

أشار السيوطي إلى تضمن سورة الفاتحة عامة مقاصد القرآن في سياق حديثه عن براعة الاستهلال، وهو « أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله، ولما كانت سورة الفاتحة هي مطلع القرآن فإنها مشتملة على جميع مقاصده كما قال البيهقي في شعب الإيمان: « أخبرنا أبو القاسم بن حبيب أنبأنا محمد بن صالح بن هانئ أنبأنا الحسين بن الفضل حدثنا عفان بن مسلم عن الربيع بن صبيح عن الحسن قال: أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة منها: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ثم أودع علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان القرآن، ثم أودع علوم

القرآن المفصّل، ثم أودع علومَ المفصّل فاتحة الكتاب^(١).

وقد وجه ذلك بأن العلوم التي احتوى عليها القرآن وقامت بها الأديان أربعة: علم الأصول ومداره على معرفة الله وصفاته، وإليه الإشارة بـ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿[الفاتحة: ٢، ٣]، ومعرفة النبوات، وإليه الإشارة بـ ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، ومعرفة المعاد، وإليه الإشارة بـ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وعلم العبادات، وإليه الإشارة بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وعلم السلوك، وهو حمل النفس على الآداب الشرعية والانقياد لرب البرية، وإليه الإشارة بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٣) أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿[الفاتحة: ٥، ٦]، وعلم القصص، وهو الاطلاع على أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية ليعلم المطلع على ذلك سعادة مَنْ أطاع الله وشقاوة مَنْ عصاه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن^(٤).

وقريب من هذا ما نقله السيوطي عن الطيبي من أن سورة الفاتحة مشتملة على أربعة أنواع من العلوم التي هي مناط الدين:

أحدها: علم الأصول ومعاقده معرفة الله تعالى وصفاته،

(١) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن (ص ٦٩٠)

(٢) المرجع نفسه (ص ٦٩٠).

وإليها الإشارة بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ [الفاتحة: ٢، ٣]، ومعرفة النبوة، وهي المرادة
بقوله: ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، ومعرفة المعاد، وهو
المومي إليه قوله: ﴿مَلِكٌ يُوقِرُ الدِّينَ﴾ [الفاتحة: ٤].

وثانيها: علم الفروع، وأُسسه العبادات، وهو المراد بقوله:
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وثالثها: علم ما يحصل به الكمال، وهو علم الأخلاق،
وأجلُّه الوصول إلى الحضرة الصِّمدانية، والالتجاء
إلى جناب الفردانية، والسلوك لطريقه، والاستقامة فيها،
وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢) أَهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ ﴿ [الفاتحة: ٥، ٦].

ورابعها: علم القصص والأخبار عن الأمم السالفة
والقرون الخالية، السعداء منهم والأشقياء، وما يتصل بها من
وعد محسنهم ووعد مسيئهم، وهو المراد بقوله: ﴿أَنعَمْتَ
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]^(٣).

فمقاصد القرآن وفق هذا التقسيم هي: علم الأصول
(معرفة الله وصفاته، والنبوات، والمعاد)، وعلم العبادات،
وعلم السلوك، وعلم القصص، وهو تقسيم أكثر تفصيلاً
وأوضح معالم من تقسيم الرازي السابق الذي اقتصر فيه على
ما يتعلق بالعقيدة (الإلهيات، والمعاد، والنبوات، والقدر)؛

(١) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن (ص ٨١٠).

فقد شمل العقيدة، والشريعة، والأخلاق، والقصص، وهذه المقاصد هي من أهم مقاصد القرآن الكريم، كما سيتضح لنا عندما نتناول مختلف تقسيمات العلماء لها.

ج - عند شهاب الدين الألوسي:

سورة الكافرون:

عرض شهاب الدين الألوسي لمقاصد القرآن عند تفسيره لسورة الكافرون، فبعد أن أورد الحديث الذي أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر أنها تعدل ربع القرآن، وجّه ذلك بأن القرآن مشتمل على الأمر بالمأمورات والنهي عن المحرّمات، وكل منهما إما أن يتعلق بالقلب أو الجوارح، فيكون أربعة أقسام، وهذه السورة مشتملة على النهي عن المحرّمات المتعلقة بالقلب، فتكون كربع القرآن^(١).

ولكن هذا التقسيم الذي ذكره الألوسي عام جداً؛ إذ القول بانحصار مقاصد القرآن في المأمورات والمنهيات، لا يكفي في إدراك المقاصد وأقسامها على حقيقتها.

ولذلك وجدنا الألوسي يذكر اعتراض بعض العلماء على حصر مقاصد القرآن في المأمورات والمنهيات؛ لكون مقاصد القرآن العظيم لا تنحصر في الأمر والنهي المذكورين. بل هو مشتمل على مقاصد أخرى، كأحوال المبدأ والمعاد، ومن

(١) شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٢٤٩/٣٠).

هنا قيل: لعل الأقرب أن يقال: إن مقاصد القرآن التوحيد، والأحكام الشرعية، وأحوال المعاد. والتوحيد عبارة عن تخصيص الله تعالى بالعبادة... والتخصيص إنما يحصل بنفي عبادة غيره تعالى وعبادة الله ﷻ؛ إذ التخصيص له جزآن: النفي عن الغير والإثبات للمخصص به، فصارت المقاصد بهذا الاعتبار أربعة، وهذه السورة تشتمل على ترك عبادة غيره سبحانه والتبرّي منها فصارت بهذا الاعتبار ربع القرآن، ولكونها ليس فيها التصريح بالأمر بعبادة الله ﷻ كما أن فيها التصريح بترك عبادة غيره تعالى لم تكن كنصف القرآن^(١).

ونلاحظ أن تقسيم مقاصد القرآن إلى توحيد وأحكام شرعية وأحوال المعاد تقسيمٌ مقبولٌ على الرغم من عموميته، ولكنه لم يورد بعض المقاصد الهامة، كجانب القصص.

وذكر الألوسي توجيهاً آخر بقوله: «وقيل إن مقاصد القرآن صفاته تعالى والنبوات والأحكام والمواعظ وهي مشتملة على أساس الأول وهو التوحيد؛ ولذا عدلت رבעه»^(٢).

وهذا التقسيم أضاف إلى التوحيد والأحكام؛ مقصدي النبوات والمواعظ، ولكن هذين المقصدين غير محددين؛ إذ لا يمكن الفصل بسهولة بين مقصد التوحيد والأحكام

(١) شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٢٤٩/٣٠).

(٢) المرجع نفسه (٢٤٩/٣٠).

من جهة، وبين مقصد المواعظ من جهة أخرى. أضف إلى ذلك أن مقصد القصص لم يحدد محله من مقصدي النبوات والمواعظ؛ إذ إن عامة حديث القرآن عن النبوات ورد في سياق قصص الأنبياء المذكورين في القرآن، مع اشتغال هذه القصص على المواعظ أيضًا...

ثم ذكر الألوسي تقسيمًا آخر لمقاصد القرآن استحسنة ونسبه إلى بعض معاصريه فحواه أن الدين الذي تضمنه القرآن أربعة أنواع: عبادات ومعاملات وجنایات ومناكحات، والسورة متضمنة من النوع الأول فكانت ربعاً^(١).

وهذا التقسيم برأينا غير جامع؛ ذلك أنه لم يتضمن مقصد العقائد على أهميته وكونه أسس جميع المقاصد الأخرى، ثم إنه يجعل الجنایات والمناكحات خارج دائرة المعاملات مع أن العلماء درجوا على تقسيم الأحكام الشرعية كلها إلى عبادات ومعاملات.

سورة التكاثر:

ومن السور التي كانت مناسبة للحديث عن مقاصد القرآن عند الألوسي سورة التكاثر؛ حيث أورد حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ في ليلة ألف آية لقي الله تعالى وهو ضاحك في وجهه». فقل: يا رسول الله، من يقوى على ألف آية؟ فقرأ سورة ألهاكم

التَّكَاثُرُ إِلَى آخِرِهَا، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ أَلْفَ آيَةٍ »^(١).

« ثم أورد توجيه ناصر الدين بن الميلى لذلك بأن القرآن ستة آلاف ومائتا آية وكسر، فإذا تركنا الكسر كان الألف سدس القرآن، وهذه السورة تشتمل على سدس من مقاصد القرآن فإنها على ما ذكره الغزالي ستة؛ ثلاثة مهمة: وهي تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم، وتعريف الحال عند الرجوع إليه ﷻ، وثلاثة متممة وهي: تعريف أحوال المطيعين، وحكاية أقوال الجاحدين، وتعريف منازل الطريق، وأحدهما: معرفة الآخرة المشار إليه بتعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى المشتمل عليه السورة، والتعبير على هذا المعنى بألف آية أفخم وأجل من التعبير بالسدس »^(٢).

وهذا التوجيه الذي اعتمد فيه على تقسيم الغزالي لمقاصد القرآن هو توجيه وجيه، وذلك بالنظر إلى أن تقسيم الغزالي لمقاصد القرآن - كما سيأتي لاحقاً - تقسيمٌ علميٌّ رصينٌ ينم عن طول تأمل في القرآن، وفقه عميق لمعانيه ومقاصده.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١ / ٧٦٩، رقم ٢١٣٥)، والبيهقي في شعب الإيمان في باب: ذكر ألهاكم التكاثر (٤ / ١٣٠، رقم ٢٢٨٧). قال المنذري (٢ / ٢٤٨): رواه الحاكم ورجال إسناده ثقات إلا أن عقبه لا أعرفه. وذكره التقى الهندي في كنز العمال برقم (٤٠٨٥).

(٢) شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٣٠ / ٢٢٣).

وهكذا استطاع بعض المفسرين التهدي إلى المقاصد الأساسية للقرآن الكريم، انطلاقاً من بعض السور التي وردت الأحاديث في فضلها، وكونها تعدل قدرًا من القرآن، وذلك بالتأمل في معاني تلك السور ومقاصدها.

د - عند سيد قطب:

يعد سيد قطب من المفسرين الذين انتبهوا إلى استقلال كل سورة بمقاصدها وموضوعها الخاص، وقد بين هذا الأمر بقوله: « يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سوره شخصية مميزة... ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص. ولها جو خاص يظل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو... وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً »^(١).

وبناءً على هذا المبدأ كان سيد قطب يشير في مقدمة تفسيره لكثير من السور إلى محورها الذي تدور عليه آياتها، وموضوعها الذي تعالجه، فهو يقول عن سورة البقرة: « هذه السورة تضم عدة موضوعات، ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج... فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها ﷺ وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها، وهي من

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن (١ / ٢٧).

الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها؛ وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطئه الرئيسيين^(١).

ويقول عن سورة الكهف: «... أما المحور الموضوعي للسورة والذي ترتبط به موضوعاتها، ويدور حوله سياقها، فهو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة»^(٢).

ويقارن سيد قطب أحياناً بين سورتين لبيان الفرق بين تناولهما لموضوع أو قضية، فهو يقول عن سورة الأنعام والأعراف: «إن موضوع سورة الأنعام هو العقيدة. وموضوع سورة الأعراف هو العقيدة. ولكن بينما سورة الأنعام تعالج العقيدة في ذاتها؛ وتعرض موضوع العقيدة.. وحقيقتها، نجد سورة الأعراف - وهي تعالج موضوع العقيدة كذلك - تأخذ طريقاً آخر، وتعرض موضوعها في مجال آخر.. إنها تعرضه في مجال التاريخ البشري.. في مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملا الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها»^(٣).

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن (١/ ٢٧).

(٢) المرجع نفسه (٤/ ١٢٥٦).

(٣) المرجع نفسه (٣/ ١٢٤٣).

ومن بين المؤشرات التي كان سيد قطب يعتمد عليها في تبيان موضوع السورة ومحورها نوع السورة إن كانت مكية أو مدنية، انطلاقاً من مبدأ تمايز النوعين في المقاصد والخصائص: « فالقرآن المكي، ولو أنه قرآن من القرآن، يشترك مع سائرهِ في خصائصه القرآنية العامة، وفي تفرُّده من كل قول آخر لا يحمل الطابع الرباني الفريد العجيب، في الموضوع وفي الأداء سواء.. إلّا أن له مع ذلك جوّه الخاص، ومذاقه المعين »^(١).

وقد هداه ذلك إلى استخلاص موضوع القرآن المكي ومقاصده، ف « موضوعات السور المكية وهدفها الأول هو بناء أسس العقيدة أما الأصول الكبيرة لهذه العقيدة فهي الوحي، والرسالة، والتوحيد، والبعث والحساب، والجزاء »^(٢).

وهكذا فإن السور القرآنية كانت مدخلاً عند عديد المفسرين للحديث عن مقاصد القرآن الكريم، انطلاقاً من أن لكل سورة موضوعاً عاماً ومقصداً محدداً، وأن مقاصد القرآن هي مجموع مقاصد سورهِ، وأن فضل السورة يتأتى من نسبة ما تتضمنه من هذه المقاصد.

* * *

(١) المرجع نفسه (٣/ ١٧٤٥).

(٢) المرجع نفسه (٤/ ٢٠٧٧).

ثانياً:

تصنيفات العلماء لمقاصد القرآن

١ - مقاصد القرآن عند أبي حامد الغزالي:

ذهب عبد الكريم حامدي إلى أنه لم يوجد من القدماء من قسّم مقاصد القرآن^(١)، ولكننا لو تأملنا كتاب « جواهر القرآن » لأبي حامد الغزالي، لوجدنا تقسيماً واضحاً لمقاصد القرآن... ويعد أبو حامد الغزالي بهذا الوحيد - من بين القدماء - الذي وضع تصنيفاً واضحاً ودقيقاً لمقاصد القرآن الكريم.

وقد جعل الغزالي مقاصد القرآن نوعين فقال:

« انحصرت مقاصد سور القرآن وآياته في ستة أنواع: ثلاثة منها هي السوابق والأصول المهمة، وثلاثة هي الروادف والتوابع المغنية المتممة.

* أما الثلاثة المهمة فهي: تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه، وتعريف الحال عند الوصول إليه^(٢).

* وأما الثلاثة المغنية المتممة..

- فأحدها: تعريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائف

(١) عبد الكريم حامدي، مقاصد القرآن من تشريع الأحكام (ص ١٦).

(٢) أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن (ص ٢٣).

صنع الله فيهم وسره، ومقصوده التشويق والترغيب، وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة وكيفية قمع الله لهم وتنكيله لهم، وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب.

- وثانيها: حكاية أقوال الجاحدين، وكشف فضائحهم وجهلهم والمجادلة والمحااجة على الحق، وسره ومقصوده في جنب الباطل الإفضاح والتنفير، وفي جنب الحق الإيضاح والتثبيت والتقهير.

- وثالثها: تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد^(١).

ثم فصل أبو حامد هذه المقاصد بذكر أقسامها وما تشتمل عليه:

* فتعريف المدعو إليه، هو شرح معرفة الله تعالى، وتشتمل هذه المعرفة على معرفة ذات الحق - تبارك وتعالى -، ومعرفة الصفات، ومعرفة الأفعال^(٢).

وأهم هذه الأنواع معرفة الذات، ثم تليها معرفة الصفات، وتليها معرفة الأفعال، ومعرفة الذات أضيقتها مجالاً، وأعسرها منالاً، وأعصاها على الفكر، وأبعدها عن قبول الذكر؛ ولذلك لا يشتمل القرآن منها إلا على تلويحات وإشارات، ويرجع ذكرها إلى ذكر التقديس المطلق كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ

(١) المرجع نفسه (ص ٢٤).

(٢) المرجع نفسه (ص ٢٥).

شَىءٌ ﴿ [الشورى: ١١]، وسورة الإخلاص، وإلى التعظيم المطلق كقوله: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ [الأنعام: ١٠٠، ١٠١]. وأما الصفات فالمجال فيها أفسح، ونطاق النطق فيها أوسع؛ ولذلك كثرت الآيات المشتملة على ذكر العلم والقدرة والحياة، والكلام والحكمة، والسمع والبصر وغيرها. وأما الأفعال فبحرٌ متسعةٌ أكنافه، ولا تنال بالاستقصاء أطرافه، بل ليس في الوجود إلا الله وأفعاله، وكل ما سواه فعله؛ كذكر السماوات والكواكب، والأرض والجبال، والشجر والحيوان، والبحار والنبات، وإنزال الماء الفرات، وسائر أسباب النبات والحياة، وهي التي ظهرت للحس^(١).

* وأما طريق السلوك إلى الله تعالى فيكون بالتبتل كما قال الله تعالى: ﴿وَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِلًا﴾ [المزمّل: ٨]؛ أي انقطع إليه، والانقطاع إليه يكون بالإقبال عليه، والإعراض عن غيره، وترجمته قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمّل: ٩]، والإقبال عليه إنما يكون بملازمة الذكر، والإعراض عن غيره يكون بمخالفة الهوى والتنقي عن كدورات الدنيا وتزكية القلب عنها، والفلاح نتيجتها كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١١) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿ [الأعلى: ١٤، ١٥]، فعمدة الطريق أمران: الملازمة والمخالفة؛ الملازمة لذكر الله تعالى،

(١) أبو حامد الغزالي، جوهر القرآن (ص ٢٦).

والمخالفة لما يشغل عن الله، وهذا هو السفر إلى الله، وليس في هذا السفر حركة، لا من جانب المسافر، ولا من جانب المسافر إليه، فإنهما معاً، أو ما سمعت قوله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] ^(١).

* وأما تعريف الحال عند ميعاد الوصول فيشتمل على ذكر الروح والنعيم الذي يلقاه الواصلون، والعبارة الجامعة لأنواع روحها الجنة، وأعلاها لذة النظر إلى الله تعالى. ويشتمل أيضاً على ذكر الخزي والعذاب الذي يلقاه المحجوبون عنه بإهمال السلوك، والعبارة الجامعة لأصناف آلامها الجحيم، وأشدّها ألماً ألم الحجاب والإبعاد، أعاذنا الله منه. ولذلك قدّمه في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ ^(١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿المطففين: ١٥، ١٦﴾، ويشتمل على ذكر مقدمات أحوال الفريقين، وعنهما يعبر بالحشر والنشر والحساب والميزان والصراط، ولها ظواهر جليّة تجري مجرى الغذاء لعموم الخلق، ولها أسرار غامضة تجري مجرى الحياة لخصوص الخلق، وثلاث آيات القرآن وسوره يرجع إلى تفصيل ذلك ^(٢).

* أما أحوال السالكين والناكبين: فهي قصص الأنبياء والأولياء، كقصة آدم ونوح، وإبراهيم وموسى وهارون، وزكريا ويحيى، وعيسى ومريم، وداود وسليمان، ويونس

ولوط، وإدريس والخضر، وشعيب وإلياس، ومحمد ﷺ، وجبريل وميكائيل والملائكة وغيرهم... وكقصص نمرود وفرعون، وعاد وقوم لوط، وقوم تبع، وأصحاب الأيكة، وكفار مكة، وعبد الأوثان، وإبليس والشياطين وغيرهم، وفائدة هذا القسم الترهيب والتنبيه والاعتبار، ويشتمل أيضًا على أسرار ورموز وإشارات محوكة إلى التفكير الطويل^(١).

* أما القسم الخامس فيشتمل على محاجة الكفار ومجادلتهم، وإيضاح مخازيهم بالبرهان الواضح وكشف تخايلهم وأباطيلهم^(٢). وذلك ثلاثة أنواع: ذكر الله تعالى بما لا يليق به، من أن الملائكة بناته وأن له ولدًا وشريكًا، وأنه ثالث ثلاثة. وذكر رسول الله بأنه ساحر وكاهن وكذاب، وإنكار نبوته، وأنه بشر كسائر الخلق فلا يستحق أن يُتبع، وإنكار اليوم الآخر، وجحد البعث والنشور، والجنة والنار، وإنكار عاقبة الطاعة والمعصية.

* أما القسم السادس والأخير فهو في تعريف عمارة منازل الطريق وكيفية التأهب للزاد، والاستعداد بإعداد السلاح الذي يدفع سراق المنازل وقطاعها. وبيانه أن الدنيا منزل من منازل السائرين إلى الله تعالى، والبدن مركب، فمن ذهل عن تدبير المنزل والمركب لم يتم سفره، وما لم ينتظم أمر المعاش في الدنيا لا يتم أمر التبتل والانقطاع إلى الله تعالى

(٢، ١) أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن (ص ٣١).

الذي هو السلوك، ولا يتم ذلك حتى يبقى بدنه سالمًا ونسله دائماً، ويتم كلاهما بأسباب الحفظ لوجودهما وأسباب الدفع لمفسداتهما ومهلكاتهما^(١).

أما أسباب الحفظ لوجودهما فالأكل والشرب وذلك لبقاء البدن، والمناكحة وذلك لبقاء النسل، فقد خلق الغذاء سبباً للحياة، وخلق الإناث محلاً للحراثة. إلا أنه ليس يختص المأكول والمنكوح ببعض الآكلين بحكم الفطرة، ولو ترك الأمر فيه مهملاً من غير تعريف قانون في الاختصاصات لتهاونوا، وتقاتلوا، وشغلهم ذلك عن سلوك الطريق، بل أفضى بهم إلى الهلاك؛ فشرح القرآن قانون الاختصاص بالأموال في آيات المبيعات والربويات والمدائيات، وقسم الموارد، وموجب النفقات، وقسم الغنائم والصدقات، والمناكحات، والعنق والكتابة والاسترقاق والسبي، وعرف كيفية ذلك التخصيص عند الاتهام بالإقاريات وبالأيمان والشهادات.

وأما الاختصاص بالإناث فقد بينته آيات النكاح والطلاق والرجعة والعدة، والخلع والصداق والإيلاء والظهار واللعان، وآيات محرمات النسب والرضاع والمصاهرات.

وأما أسباب الدفع لمفسداتهما فهي العقوبات الزاجرة عنها، كقتال الكفار وأهل البغي والحث عليه، والحدود والغرامات، والتعزيرات، والكفارات، والديات، والقصاص.

(١) المرجع نفسه (ص ٣٢).

أما القصاص والديات فدفعاً للسعي في إهلاك الأنفس والأطراف. وأما حد السرقة وقطع الطريق فدفعاً لما يستهلك الأموال التي هي أسباب المعاش. وأما حد الزنا واللواط والقذف فدفعاً لما يشوش أمر النسل والأنساب، ويفسد طريق التحارث والتناسل. وأما جهاد الكفار وقتالهم فدفعاً لما يعرض من الجاحدين للحق من تشويش أسباب المعيشة والديانة اللتين بهما الوصول إلى الله تعالى. وأما قتال أهل البغي فدفعاً لما يظهر من الاضطراب بسبب انسلال المارقين عن ضبط السياسات الدينية التي يتولاها حارس السالكين وكافل المحققين نائباً عن رسول رب العالمين... ويشتمل هذا القسم على ما يسمى الحلال والحرام وحدود الله^(١).

إن هذا التقسيم الذي جاء به الغزالي تقسيم يبدو شاملاً لجميع مقاصد القرآن، وسنجد أن تصنيف العلماء بعد الغزالي لمقاصد القرآن لا يكاد يخرج عما ذكره، ومما انفرد به الغزالي في هذا التقسيم هو جعله ما سماه (تعريف الصراط المستقيم) أو طريق القرب من الله - مقصداً أساسياً مستقلاً، مع أننا يمكن أن ندرجه ضمن المقصد الأول المتعلق بتعريف المدعو إليه.

والأمر الثاني الذي يلاحظ على تصنيف الغزالي لمقاصد القرآن هو تمييزه بين نوعين من المقاصد: أساسية و ثانوية،

(١) أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن (ص ٣٣).

أو ما سماه مقاصد مهمة وأخرى مُتِمَّة، وهذا الأمر ذو أهمية بالغة في تصنيف المقاصد، ولعله سبب كثير من الاختلاف بشأنها؛ إذ إن ما يعده أحدهم مقصدًا مستقلًّا يعده غيره مقصدًا تابعًا لغيره، بل إننا نجد في بعض التصنيفات خلطًا بين المقاصد الأساسية والمقاصد الثانوية التي ينبغي أن تُدرج ضمنها.

ويمكن القول: إن مقاصد القرآن الأساسية بحسب الغزالي

هي:

١ - التوحيد (تعريف المدعو إليه).

٢ - المعاد أو الوعد والوعيد (تعريف الحال عند الوصول إليه).

٣ - القصص (تعريف أحوال السالكين والناكبين).

٤ - أحكام التشريع (تعريف عمارة منازل الطريق).

ويلاحظ أن مقاصد الشريعة التي يعبر عنها العلماء بالكليات الخمس أدرجها الغزالي ضمن المقصد الأخير المتعلق بعمارة منازل الطريق، وهذا الأمر يعزّز ما ذهبنا إليه من أن مقاصد القرآن تختلف عن مقاصد الشريعة، فهذه مقصد واحد من مقاصد القرآن الكريم.

٢ - مقاصد القرآن عند رشيد رضا:

في كتابه (الوحي المحمدي) عرض الأستاذ رشيد رضا إلى مقاصد القرآن، وجعلها عشرة:

* المقصد الأول: أركان الدين الثلاثة: الإيمان بالله تعالى، وعقيدة البعث والجزاء، والعمل الصالح.

* والمقصد الثاني: النبوة والرسالة.

* والمقصد الثالث: إكمال نفس الإنسان من الأفراد والجماعات والأقوام.

* والمقصد الرابع: الإصلاح الإنساني الاجتماعي السياسي الوطني.

* المقصد الخامس: مزايا الإسلام العامة، أو خصائص الشريعة.

* المقصد السادس: حكم الإسلام السياسي، أو النظام السياسي.

* المقصد السابع: حكم المال، أو النظام الاقتصادي.

* المقصد الثامن: نظم الحرب وفلسفتها، أو السياسة الدولية.

* المقصد التاسع: قضايا المرأة.

* المقصد العاشر: تحرير الرقيق^(١).

ولنا على هذا التصنيف الذي جاء به رشيد رضا عدة ملاحظات:

فهو قد ضمّن المقصد الأول مقصدين أساسيين هما

(١) رشيد رضا، الوحي المحمدي (ص ١٦٦) وما بعدها.

التوحيد والمعاد، ولم يرد عنده ذكر لمقصد القصص على أهميته. أما عامة المقاصد التي أدرجها في تصنيفه فهي متعلقة بالأحكام التشريعية في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهذا الأمر يدل على عدم تمييزه بين مقاصد القرآن ومقاصد الشريعة.

كما أن بعض المقاصد التي ذكرها رشيد رضا مقاصد فرعية ثانوية كمقصد تحرير الرق، وقضايا المرأة، مما يدل على أن التصنيفات المختلفة لمقاصد القرآن تتأثر أحياناً بخلفيات أصحابها الفكرية والعلمية. كما أن رشيد رضا أورد مزايا الإسلام العامة أو خصائص الشريعة ضمن مقاصد القرآن، مع أنها ليست كذلك.

وقد لاحظ عبد الكريم حامدي بخصوص هذا التقسيم أن بعض مقاصده متداخل مع البعض الآخر، فكان أن اختصر هذه المقاصد في سبعة هي: الإصلاح العقدي، والإصلاح الفكري، والإصلاح الاجتماعي، والإصلاح التشريعي، والإصلاح المالي، والإصلاح السياسي، والإصلاح الحربي^(١).

٣ - مقاصد القرآن عند عبد العظيم الزرقاني:

أجمل الشيخ عبد العظيم الزرقاني مقاصد القرآن الكريم في ثلاثة مقاصد في قوله:

بما أن الترجمة عرفاً لا بد أن تتناول مقاصد الأصل

(١) عبد الكريم حامدي، مقاصد القرآن من تشريع الأحكام (ص ٣٨).

جميعاً، فإننا نقفك على أن لله تعالى في إنزال كتابه العزيز ثلاثة مقاصد رئيسية هي: أن يكون هداية للثقلين، وأن يقوم آية لتأييد النبي، وأن يتعبد الله خلقه بتلاوة هذا الطراز الأعلى من كلامه المقدس^(١).

* فهداية القرآن تمتاز بأنها عامة، وتامة، وواضحة:

أما عمومها؛ فلأنها تنتظم الإنس والجن، في كل عصر ومصر، وفي كل زمان ومكان.

وأما تمامها؛ فلأنها احتوت أرقى وأوفى ما عرفت البشرية وعرف التاريخ من هدايات الله والناس، وانتظمت كل ما يحتاج إليه الخلق في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أنواعها، وجمعت بين مصالح البشر في العاجلة والآجلة، ونظمت علاقة الإنسان بربه وبالكون الذي يعيش فيه، ووفقت بطريقة حكيمة بين مطالب الروح والجسد.

وأما وضوح هذه الهداية فلعرضها عرضاً رائعاً مؤثراً توافرت فيه كل وسائل الإيضاح وعوامل الإقناع بأسلوب فذ معجز في بلاغته وبيانه، واستدلال بسيط عميق يستمد بساطته وعمقه من كتاب الكون الناطق، وأمثال خلابة تُخرج أدق المعقولات في صورة أجلى الملموسات، وحكم بالغات تُبهر الألباب، وقصص حكيمة مختار يقوي الإيمان

(١) محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن (١ / ٢١).

واليقين، ويُهذب النفوس والغرائز، ويُصقل الأفكار والعواطف، ويدفع الإنسان دفعاً إلى التضحية والنهضة^(١).

* وإعجاز القرآن أن يقوم في فم الدنيا آية شاهدة برسالة سيدنا محمد ﷺ وأن يبقى على جبهة الدهر معجزة خالدة تنطق بالهدى ودين الحق ظاهراً على الدين كله، وأبرز أوجه هذا الإعجاز بلاغته العليا...

* وأما التعبُّد بتلاوته فهو أن يتعبد الله خلقه بتلاوته، ويقرِّبهم إليه ويأجرهم على مجرد ترديد لفظه ولو من غير فهمه، فإذا انضاف الفهم إلى التلاوة زاد الأجر^(٢).

ويلاحظ أن المقاصد التي ذكرها الزرقاني ليست مما نحن بصددده، فهي لا تتعلق بالقضايا والمحاور العامة للقرآن، ولكنها تتعلق بالمقاصد العامة من إنزال القرآن أصلاً، وبذلك تكون إلى الخصائص أقرب منها إلى المقاصد.

٤ - مقاصد القرآن عند محمود شلتوت:

قسَّم العلامة محمود شلتوت مقاصد القرآن ثلاثة أنواع بقوله:

« إن مقاصد القرآن تدور حول نواحٍ ثلاث: ناحية العقيدة، وناحية الأخلاق، وناحية الأحكام.

* فالعقائد تطهِّر القلب من بذور الشرك والوثنية، وتربطه

(١) المرجع نفسه (٢٣/١).

(٢) المرجع نفسه (٢٦/١).

بمبدأ الروحية الصافية، وهي تشمل ما يجب الإيمان به في جانب الله من صفات الجلال والكمال، وما يجب الإيمان به في جانب الوحي والرسالات من الملائكة والكتب والنبين، وما يجب الإيمان به في حالات اليوم الآخر من البعث والجزاء.

* والأخلاق تهذب النفس وتزكيها، وترفع من شأن الفرد والجماعة، وتقوي عرى التآخي والتعاون بين بني الإنسان وتشمل: الصدق، والصبر، والوفاء بالعهد، والحلم، والجود، والرحمة، وغيرها مما يحقق في الإنسان ثمرة إيمانه بالله وصفاته التي يجب أن يكون عليها.

* والأحكام هي ما بيّنه الله في كتابه أو بيّن أصوله من النظم التي يجب اتباعها في تنظيم علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بأخيه الإنسان، وتشمل:

- أحكام الصلاة والزكاة والصوم والحج واليمين والنذر وما إلى ذلك...

- أحكام الزواج والطلاق وما يتبعهما من مهر ونفقة ورضاعة ونسب وعدة ووصية وإرث وما إلى ذلك...

- أحكام البيع والإجارة والرهن والمداينة، وما إلى ذلك.

- أحكام الجنايات والجرائم، كالقتل، والسرقة، والإفساد في الأرض، والزنا، والقذف، وما إلى ذلك.

- أحكام الحرب والسلم وما يتبعها من غنائم وأسرى،

ومعاهدات، وما إلى ذلك»^(١).

إن المقاصد الثلاثة التي ذكرها شلتوت هي من أركان المقاصد القرآنية، فمقصد العقيدة يتضمن التوحيد والمعاد وما يتبعهما من الإيمان بالكتب والرسول، والأحكام هي مقصد أساسي من مقاصد القرآن، والأخلاق هي جانب مهم يمكن أن يشكل مقصدًا خاصًا. وقد تميز تصنيف شلتوت بجعل مقصد الأخلاق مستقلاً، ولكنه لم يورد مقصد القصص على الرغم من أن هذا المقصد يشكل شطر القرآن.

٥ - مقاصد القرآن عند محمد الطاهر ابن عاشور:

تحدث محمد الطاهر ابن عاشور في مقدّمة تفسيره عن مقاصد القرآن الكريم فجعلها ثمانية:

* الأول: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح، وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق؛ لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما^(٢).

* الثاني: الأخلاق، ففي الحديث الذي رواه مالك في الموطأ بلاغاً عن رسول الله ﷺ قال: «بعثت لأتمم حُسن الأخلاق»^(٣). وهذا القصد قد فهمه عامة العرب بل خاصة

(١) محمود شلتوت، إلى القرآن الكريم (ص ٦).

(٢) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير (١/ ٤٠).

(٣) رواه مالك في الموطأ بلاغاً في كتاب حسن الخلق باب ما جاء في =

الصحابة، وقال أبو خراش الهذلي مشيراً إلى ما دخل على العرب بل من أحكام الإسلام بأحسن تعبير:

فليس كعهد الدارِ يا أمَّ مالك

ولكن أحاطت بالرقابِ السلاسل

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل

سوى العدل شيئاً فاستراح العواذل^(١)

* الثالث: الأحكام، فقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعاً كلياً في الغالب، وجزئياً في المهم، فقوله: ﴿بَيِّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقوله: ﴿أَلَيْوَمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] المراد بهما إكمال الكليات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس. قال الشاطبي: «لأنه على اختصاره جامع والشرعة تمت بتمامه ولا يكون جامعاً لتمام الدين إلا

= حسن الخلق بلفظ: «بعثت لأتمم حسن الخلق». قال ابن عبد البر في التمهيد: «وهذا الحديث يتصل من طرق صحاح عن أبي هريرة وغيره عن النبي ﷺ» (٣٣٣/٢٤). وقال عن رواية «لأتمم صالح الأخلاق»: «وهذا حديث مدني صحيح» (٣٣٤/٢٤).

وأخرجه أحمد في المسند برقم (٨٩٥٢)، قال محققه الشيخ شعيب الأرنؤوط: «صحيح وهذا إسناد قوي، رجاله رجال الصحيح غير محمد ابن عجلان فقد روى له مسلم متابعة، وهو قوي الحديث» (٥١٣/١٤). وأخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (٢٧٣)، والبيهقي في الشعب برقم (٧٩٧٧، ٧٩٧٨)، والحاكم في المستدرک وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم» برقم (٤٢٨٠، ٢/٧٢٠).

(١) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير (١/٤٠).

والمجموع فيه أمور كلية»^(١).

* الرابع: سياسة الأمة، وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها كالإرشاد إلى تكوين الجامعة بقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]^(٢).

* الخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْخَفِيلِ﴾ [يوسف: ٣]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفْتِدَةٌ﴾، [الأنعام: ٩٠]. وللتحذير من مساوئهم قال: ﴿وَبَيَّنَّا لَكُمُ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥]^(٣).

* السادس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب. وقد زاد القرآن على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين وفي دعوته إلى النظر، ثم نوه بشأن الحكمة فقال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ

(٢، ١) المرجع نفسه (٤٠/١).

(٣) المرجع نفسه (٤١/١).

مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿ [البقرة: ٢٦٩] ^(١).

* السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.

* الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول؛ إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدي، والقرآن جَمَعَ كَوْنَهُ معجزةً بلفظه ومتحدًى لأجله بمعناه والتحدي وقع فيه: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، ولمعرفة أسباب النزول مدخل في ظهور مقتضى الحال ووضوحه ^(٢).

وأول ما يلاحظ على تصنيف ابن عاشور للمقاصد: أنه تضمّن المقاصد الأساسية للقرآن الكريم، فالمقصد الأول (الاعتقاد) يشير إلى مقصد التوحيد، والمقصد الثالث تضمن مقصد الأحكام بصفة عامة، والمقصد الخامس هو مقصد القصص، والمقصد السابع الذي سماه ابن عاشور المواعظ والإنذار أو التحذير والتبشير هو مقصد الوعد والوعيد، وإذا اعتبرنا جانب الأخلاق مقصدًا خاصًا فقد تضمنه المقصد الثاني عند ابن عاشور.

غير أن هناك ثلاثة مقاصد ذكرها ابن عاشور، وليست من

المقاصد الأساسية، وهي: سياسة الأمة، والتعليم، والإعجاز، أما سياسة الأمة والتعليم فهما مندرجان ضمن المقاصد الأخرى، ومتضمنان فيها، وأما الإعجاز فهو مقصد يتعلق بخصائص القرآن.

٦ - مقاصد القرآن عند محمد الغزالي

يُعدُّ كتاب الشيخ محمد الغزالي رحمته الله (المحاور الخمسة للقرآن الكريم) أحد التصنيفات الهامة لمقاصد القرآن الكريم وأهدافه، وذلك من خلال الحديث عن محاوره وموضوعاته العامة.

وقد جعل الغزالي محاور القرآن الكريم خمسة:

* المحور الأول: الله الواحد: تحدث فيه عن أن التوحيد هو قانون الوجود ونظام الحياة، وقضية القدر والجبر...
* المحور الثاني: الكون الدال على خالقه: وركز فيه على آيات الله الماثلة في الأنفس والآفاق، وارتباط الذكر والدعاء بمشاهد الخليقة في الأرض والسماء، وكون عقيدة البعث والجزاء امتداداً للإيمان بالله.

* المحور الثالث: القصص القرآني: وفيه حديث عن كون القصص القرآني أداة للتربية، وموقف المسلمين من رسالتهم، والأبعاد النفسية والاجتماعية للإسلام، والعلاقة بين العلم والحكم في تاريخ الإسلام.

*** المحور الرابع: البعث والجزاء:** وقد اعتمد الشيخ الغزالي في بسط هذا المقصد على تفسير موضوعي تحليلي لسورة الواقعة، باعتبار عرضها لنماذج من مشاهد القيامة ومصائر الناس يومئذ، والتدليل على يوم البعث والجزاء بأدلة من آيات الله ونعمه...

*** المحور الخامس: ميدان التربية والتشريع:** وفي هذا المبحث ركّز الغزالي على منهيات القرآن الكريم مما لا يحبه الله تعالى من الأخلاق كالاعتداء، والكبر، والخيانة، والسرف، وبعض محاب الله تعالى كالإحسان، والتوبة، والرحمة، والتقوى، والتوكل^(١).

إن تصنيف الشيخ محمد الغزالي السابق لمقاصد القرآن تصنيف شامل؛ فقد احتوى على التوحيد والقصص والمعاد والتشريع، وما يستدعي التوقف في تقسيمه هو أنه جعل دلالة الكون على الخالق مقصداً مستقلاً، مع أنه يمكن أن يُضمَّ إلى المقصد الأول المتعلق بالله الواحد؛ إذ إن ما في الكون من آيات وآلاء دلائل على الخالق...

٧ - مقاصد القرآن عند محمد الصالح الصديق:

قسّم محمد الصالح الصديق مقاصد القرآن إلى ثمانية مقاصد، خص كل مقصد بباب من أبواب كتابه (مقاصد القرآن).

(١) يُنظر كتاب محمد الغزالي: المحاور الخمسة للقرآن الكريم.

ومقاصد القرآن عنده هي: التوحيد، والعقائد، والدين، والتشريع، والعبادات، والقصص، وإعجاز القرآن، وأصول المثل العليا والنظم الاجتماعية^(١).

وقد جعل الصديق ضمن كل مقصد مجموعة من المباحث.

* فضمن مقصد التوحيد أدرج المباحث الآتية: وجود الله، علمه ووحدانيته، قدرته، صفاته وأفعاله، الخلق أو الخليفة^(٢).

* وضمن مقصد العقائد: لكل أجل حد، الموت، الحساب، الجنة، النار، خلود المؤمنين في الجنة، خلود الكافرين في النار^(٣).

* وضمن مقصد الدين تحدث عن: الدين، التفرق والاختلاف في الدين، الاتحاد والاعتصام بالدين، الاستقامة، الإيمان، الإسلام، الأوامر والنواهي، التجميل والتمتع في نظر الإسلام، الخصال التي تجعل القول أحسن الأقوال، محمد وأصحابه، صفات المؤمنين، المؤمنين بالكتاب، المتفعين بالكتاب، الترهيب من إذابة المؤمنين، التقوى، الخشوع لذكر الله، المنافقين، حالة اليهود

(١) ينظر كتاب محمد الصالح الصديق: مقاصد القرآن.

(٢) المرجع نفسه (ص ٥٣ - ١١٦).

(٣) المرجع نفسه (ص ١٤٥ - ١٧٧).

والنصارى مع المؤمنين، نزعات طائفة من أهل الكتاب، حال أهل الكفر والإيمان، الكتب المقدسة، عبادة الأوثان^(١).

* وفي مقصد التشريع تحدث عن: التشريع قبل الإسلام، حاجة البشرية إلى الإسلام، عالمية الإسلام، أصول التشريع الإسلامي، أهداف الإسلام من وراء التشريع، إبطال الرق، مصادر التشريع الإسلامي، أنواع التشريع الإسلامي^(٢).

* وضمن مقصد العبادات تناول الطهارة، والصلاة، والزكاة والصدقة، والصيام، والحج^(٣).

وفي باب القصص تحدث عن قصص الأنبياء، قصص لها تاريخ.

وتحدث في باب إعجاز القرآن عن: المعجزات، ووجوه الإعجاز^(٤).

* أما المقصد الثامن (أصول المثل العليا والنظم الاجتماعية) فتضمن: المساواة والتعاون في الإسلام، التفاضل بين الناس، أقوم المناهج في معاملة الناس، أداء الأمانة والعدل في الأحكام^(٥).

(١) محمد الصالح الصديق، مقاصد القرآن (ص ١٨٤ - ٣٢٥).

(٢) المرجع نفسه (ص ٣٢٧ - ٣٨٠).

(٣) المرجع نفسه (ص ٣٨٣ - ٤٢٥).

(٤) المرجع نفسه (ص ٤٩٣ - ٥١٠).

(٥) المرجع نفسه (ص ٥١١).

وهذا التصنيف الذي اتبعه محمد الصالح الصديق يشوبه بعض التداخل بين أبوابه؛ فقد ذكر التوحيد والعقائد منفصلين مع أنهما يشكلان مقصدًا واحدًا، وجعل التشريع والعبادات مقصدين مختلفين على الرغم من أن العبادات جزء من التشريع، كما أنه ذكر الإعجاز بين مقاصد القرآن، وهو من خصائصه.

ومع ذلك فقد تضمن تصنيف الصديق عامة مقاصد القرآن؛ التوحيد أو العقائد، والتشريع، والقصص، والأخلاق أو ما سماه أصول المثل العليا، إلا أن تصنيف الصديق خلا من مقصد المعاد أو الوعد والوعيد، وهو أحد أهم مقاصد القرآن.

٨ - مقاصد القرآن عند يوسف القرضاوي:

تأخذ المقاصد عند القرضاوي مفهوم المبادئ التي لا تصلح الإنسانية غيرها، وقد ذكر سبعة من مقاصد القرآن، رأى أن القرآن أكدها وكررها، وعني بها أشد العناية، وهي: تصحيح العقائد والتصورات، وتقرير كرامة الإنسان وحقوقه، وعبادة الله وتقواه، والدعوة إلى تزكية النفس البشرية، وتكوين الأسرة وإنصاف المرأة، وبناء الأمة الشهيدة على البشرية، والدعوة إلى عالم إنساني متعاون^(١).

* فتصحيح العقائد والتصورات يتجلى عنده في إرساء

(١) يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن الكريم؟ (ص ٧٣ - ١١٥).

دعائم التوحيد، وتصحيح العقيدة في النبوة والرسالة، وتثبيت عقيدة الإيمان بالآخرة والجزاء^(١).

* وتقرير كرامة الإنسان وحقوقه يتجلى في تقرير كرامة الإنسان، وتقرير حقوقه، وتأكيد حقوق الضعفاء من الناس^(٢).

* وعبادة الله وتقواه تتجلى في تلك المعاني التي حفل بها القرآن الكريم كالثناء على الله جل شأنه، والتذكير بوسع علمه، وبالغ حكمته، وعظيم قدرته، وشمول مشيئته، وعظمة إبداعه، وسعة رحمته، وآثار ربوبيته، والترغيب في القيام بعبوديته، والوقوف على عتبته، والرجاء في فضله، والخوف من سطوة عدله، وإسلام الوجه له، والاستغراق في حبه، والأنس به، والشوق إليه، والاطمئنان بذكره، والاجتهاد في شكره وحسن عبادته، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والصبر على بلائه، والرضا بقضائه^(٣).

* والدعوة إلى تزكية النفس البشرية، يشير إليها قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝١ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝٢﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]، فالنفس بفطرتها مستعدة للفجور الذي يدنسها ويدسيها استعدادها

(١) يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن الكريم؟ (ص ٧٣).

(٢) المرجع نفسه (ص ٧٨).

(٣) المرجع نفسه (ص ٨٦).

للتقوى التي تطهرها وتزكيها، وعلى الإنسان بعقله وإرادته أن يختار أيَّ الطريقين: طريق التزكية أو طريق التدسية، ولا ريب أنه إذا اختار طريق التزكية فقد اختار طريق الفلاح^(١).

وتكوين الأسرة وإنصاف المرأة من المقاصد التي هدف إليها القرآن بما شرعه من تكوين الأسرة الصالحة التي هي ركيزة المجتمع الصالح، ونواة الأمة الصالحة^(٢).

* وبناء الأمة الشهيذة على البشرية يعني تكوين أمة متميزة تطبّق رسالته وتؤسّس حياتها على عقيدته وشريعته ومثله، وتربي أجيالها على هداه، وتحمل رسالته إلى العالم كله، فتحمل معها الرحمة والنور والخير للبشرية كلها، وفق خصائص الربانية والوسطية والدعوة والوحدة^(٣).

* والدعوة إلى عالم إنساني متعاون يؤكد كَوْنَ الإسلام رسالة عالمية، ودعوة للناس كافة، ورحمة لكل عباد الله، عربًا كانوا أو عجمًا، ولكل بلاد الله، شرقًا كانت أم غربًا، وإلى جميع الألوان، بيضًا كانوا أو سودًا^(٤).

وفي هذا التقسيم الذي اعتمده القرضاوي يبدو مصطلح «المقاصد» أقرب إلى مفهومه الأصولي الذي استخدمه

(١) المرجع نفسه (ص ٩٢).

(٢) المرجع نفسه (ص ٩٦).

(٣) المرجع نفسه (ص ١٠٧ - ١١١).

(٤) المرجع نفسه (ص ١١٥).

علماء الأصول في حديثهم عن مقاصد الشريعة؛ ولكنه لم يتبع تقسيم الأصوليين للمقاصد. وإذا استثنينا مقصد تصحيح العقائد الذي يقابل مقصد « التوحيد » كما ورد في مختلف التصنيفات الأخرى لمقاصد القرآن، فإن القرضاوي جاء بتصنيف خاص ركز فيه على بعض القضايا، كتقرير كرامة الإنسان، وتكوين الأسرة، وبناء الأمة، والدعوة إلى عالم إنساني متعاون، فكان بذلك تصنيفاً محدثاً لمقاصد الشريعة.

٩ - مقاصد القرآن عند عبد الكريم حامدي:

انطلق الدكتور عبد الكريم حامدي من تقسيم ابن عاشور للمقاصد إلى مقاصد عامة، ومقاصد خاصة^(١):

* فأما « المقاصد العامة » فقد جعلها دائرة على التقسيم الثلاثي الذي ذكره ابن عاشور للمقاصد العامة من أنها تتضمن: تحقيق الصلاح الفردي، والصلاح الاجتماعي، والصلاح العالمي^(٢).

* وأما « المقاصد الخاصة » فقد استمد أقسامها مما ذكره رشيد رضا - بعد شيء من التعديل - فأجملها في: إصلاح العقل، وإصلاح النفس، وإصلاح الجسم، والإصلاح العائلي، والإصلاح المالي، والإصلاح العقابي، والإصلاح

(١) عبد الكريم حامدي، مقاصد القرآن من تشريع الأحكام (ص ٤٧).

(٢) المرجع نفسه (ص ٤٨).

السياسي، والإصلاح التشريعي^(١).

وهكذا مزج الحامدي بين التقسيمين السابقين فتوصل إلى أن مقاصد القرآن العامة ثلاثة هي:

* أولاً: مقصد تحقيق الصلاح الفردي، ويشمل مقصد إصلاح العقل، ومقصد إصلاح النفس، ومقصد إصلاح الجسم.

* ثانياً: مقصد تحقيق الصلاح الاجتماعي، ويشمل مقصد الإصلاح العائلي، ومقصد الإصلاح المالي، ومقصد الإصلاح العقابي.

* ثالثاً: مقصد تحقيق الصلاح العالمي، ويشمل مقصد الإصلاح التشريعي، ومقصد الإصلاح السياسي^(٢).

فالصلاح الفردي يقوم على إصلاح التصورات العقدية والفكرية فيما يتعلق بعالمي الغيب والشهادة، وكذا إصلاح أحوال النفس الظاهرة والباطنة وتخليصها من العيوب والأمراض لتستقيم على الطاعة، وكذا إصلاح الجسم ووقايته من المهلكات وحفظه من الأضرار^(٣).

والصلاح الاجتماعي يقوم على إصلاح الخلية الاجتماعية الأولى وهي العائلة، وذلك بتنظيم اجتماعها على أسس الزواج

(١) المرجع نفسه (ص ٦٦٣).

(٢) المرجع نفسه (ص ٤٨، ٤٩).

(٣) المرجع نفسه (ص ٦٦٣).

السليم، وافتراقها عند الحاجة والضرورة وفق نظام الطلاق. وكذا إصلاح النظام المالي بتنظيم طرق التملك والكسب، وحفظ المال وحمايته من أسباب الفساد، وكذا إصلاح النظام العقابي بتنظيم العقوبات وتنفيذها وفق الضوابط الشرعية لتحقيق مقاصدها في النفس والمجتمع^(١).

أما الإصلاح العالمي فيقوم على إصلاح النظام التشريعي الحاكم للمجتمع، وتنظيمه بما يحقق خلود الشريعة وحفظها من الجمود والركود بفتح باب الاجتهاد، وكذا إصلاح نظام الحكم بإقامة الحكومة الإسلامية على أسس القرآن من أجل حراسة الدين وسياسة الدنيا^(٢).

وهذا التقسيم الذي اعتمد عليه الحامدي يركز على مقاصد الشريعة والتشريع، ولا يكاد يخرج عن هذه الدائرة (الفقهية)، ويمكن أن نذكر طائفة من الأدلة تعزز هذا الحكم:

- ١ - أن عنوان كتابه (مقاصد القرآن من تشريع الأحكام)؛ فهو يتجه صوب الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات.
- ٢ - أنه انطلق أصلاً من تقسيمات العلماء لمقاصد الشريعة، ومن تقسيم محمد الطاهر ابن عاشور بالتحديد، وهو يصريح بذلك في مقدمة كتابه بقوله: « ... من هنا يأتي هذا البحث،

(١) عبد الكريم حامدي، مقاصد القرآن من تشريع الأحكام (ص ٦٦٣).

(٢) المرجع نفسه (ص ٦٦٤).

ليشكل ما توصل إليه ابن عاشور ومن معه، نواته وقاعدته، مع التوسع في التفسير والتحليل والبيان»^(١).

٣ - أن محور الدراسة كان آيات الأحكام في مجالي العبادات والمعاملات، كما ذكر المؤلف في مقدمة الدراسة^(٢).

وبناءً على ذلك فإنه يمكن القول بأن عبد الكريم حامدي استخدم مصطلح مقاصد القرآن ولكن بمفهوم مصطلح مقاصد الشريعة، وعلى الرغم من أنه حاول أن يطابق بين المصطلحين فإنه ركز في تصنيفه لمقاصد القرآن ودراسته لها على مقاصد التشريع القرآني، لا على محاور القرآن الكريم والقضايا الكبرى التي عالجها؛ أي أن دائرة المقاصد التي بنى عليها حامدي دراسته واقعة ضمن دائرة مقصد واحد من مقاصد القرآن العامة؛ هو مقصد التشريع.

١٠ - مقاصد القرآن عند طه جابر العلواني:

يذهب طه جابر العلواني إلى إجمال مقاصد القرآن الكريم في ثلاثة هي: التوحيد والتزكية والعمران، فيقول: «... والمقاصد عندي هي التي تَعَيَّها القرآن بحيث تمثل غاياته الأساسية التي لا يمكن الإخلال بها، هذه الغايات توصلنا إلى أنها ثلاث: هي التوحيد والتزكية والعمران»^(٣).

(١) المرجع نفسه (ص ١١).

(٢) المرجع نفسه (ص ١٢).

(٣) من حوار مع الدكتور طه جابر العلواني في حصة الشريعة والحياة، بُثَّتْ =

ثم حاول أن يشرح هذه الرؤية فذهب إلى أن الخطاب القرآني له مصدر هو الله تبارك وتعالى، وله من وجه إليه الخطاب؛ وهو الإنسان، وهناك ميدان الفعل الإنساني؛ ألا وهو الكون، عليه أن يتحقق فيه العمران، فهناك تفاعل بين عناصر ثلاثة: غيب وإنسان وكون، من هذا التفاعل يحدث الفعل الإنساني، والفعل الإنساني يحتاج إلى عملية تقويم، والفقه كله عبارة عن تقويم للفعل الإنساني»^(١).

إن هذا التصنيف الذي توصل إليه العلواني، تصنيف مجمل ولكنه تضمن مقاصد أساسية شاملة:

* فمقصد « التوحيد » عنده يشمل المعاد؛ لأن المعاد يترتب على القول بالتوحيد.

* ومقصد « التزكية » الذي ذكره لا شك أنه يتضمن

= على قناة الجزيرة بتاريخ (٢٨/٠٢/٢٠١٠م).

(١) المرجع نفسه - وهناك بعض التصنيفات الأخرى لمقاصد القرآن لا يتسع مجال الدراسة لإيرادها، منها تصنيف سيد محمد نوح الذي جعلها عشرة هي: التعريف بالله، والتعريف بالنفس، والتعريف بالرسالة، والتعريف بالمنهج، والتعريف بالقدوة، والتعريف بالكون، والتعريف بالعوالم الغيبية، والتعريف بعقبات الطريق، والتعريف بحقوق الأخوة، والتعريف بالعاقبة والمصير وما فيهما من ثواب وعقاب.

وهناك تصنيف بديع الزمان النورسي الذي أجملها في: التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة.

وهناك تصنيف حنان اللحام التي ذهبت إلى أن مقاصد القرآن ثلاثة أنواع: مقاصد خلق الإنسان، ومقاصد خلق الكون، ومقاصد القدر.

الأخلاق وطرفاً من التشريع.

* أما مقصد « العمران » فيشمل كل أحكام الشريعة، ولكنه يوحي بأنه يمتد إلى كل ما يبتدعه الإنسان ويتهدى إليه من وسائل ونظم حياتية تحقق مبدأ الاستخلاف وعمارة الأرض في إطار العبودية لله ﷻ.

وإذ لم يجعل العلواني موضوع القصص مقصداً خاصاً للقرآن فلأن جانب القصص ليس مقصوداً لذاته، ولكنه مقصد يعزز المقاصد الأخرى، سواء ما تعلق منها بالعقائد أم بالتشريعات، فالقصص القرآني جاء ليرز نماذج المستجيبين للهدى والمعرضين عنه، وعاقبة الفريقين، ولم يأت لمجرد القصص.

ولا شك أن مصطلح « العمران » الذي جاء به العلواني وجعله مقصداً من مقاصد القرآن يتصل اتصالاً وثيقاً بمنهج العلواني في الدعوة والإصلاح؛ فهذا المنهج ينطلق من أن مشكلة المسلمين مشكلة حضارية مردّها إلى إعراض المسلمين أو غفلتهم عن أسباب الحضارة والعمران التي أخذ بها الغرب فتقدم وتخلّف المسلمون.



ثالثاً:

خلاصات ونتائج

مما سبق نستطيع أن نستخلص نتائج وخلاصات على النحو الآتي:

* يأخذ مصطلح « المقاصد » معاني شتى ويلتبس بمفاهيم ومصطلحات أخرى بحسب السياق الذي يستعمل فيه، فقد يعني الأهداف التشريعية والتربوية للشريعة الإسلامية، والحكم والأسرار التشريعية، والمصالح (الكليات الخمس). كما يُستخدم للدلالة على المعاني العامة والمحاور الكبرى للقرآن الكريم أو النصوص عامة، ومن هنا وجب أن يكون الباحث على وعي بالفرق بين مقاصد الشريعة ومقاصد القرآن.

* لم تنضبط معالم الحدود بين مقاصد القرآن ومقاصد الشريعة عند كثير من العلماء والباحثين، فجاء حديثهم عن مقاصد القرآن متعلقاً بالحديث عن مقاصد الشريعة أو مشوباً بها؛ ولهذا اتسمت تعريفات المقاصد وتصنيفاتها بأمرين هما: تأثرها بمقاصد الشريعة، من حيث دورانها على مبدأ تحقيق المصلحة ودفع المفسدة، وتركيزها على المقصد العام للقرآن والشريعة (الهداية وتحقيق الصلاح)، وعدم التفاتها إلى المقاصد الخاصة التي تعني القضايا والمحاور التي دارت عليها سور القرآن الكريم.

* يمكننا تعريف « مقاصد القرآن الكريم » بأنها القضايا الأساسية والمحاور الكبرى التي دارت عليها سور القرآن الكريم وآياته، تعريفًا برسالة الإسلام، وتحقيقًا لمنهجه في هداية البشر.

* لمعرفة « مقاصد القرآن » أهمية كبيرة في التفسير؛ ذلك أن توجيه المعنى أو الترجيح بين الدلالات المختلفة، أو استنباط الأحكام والأبعاد المختلفة للنص يعتمد على الإلمام بالمقاصد العامة من قبل المفسر، وما المعاني والدلالات التي تواجه المفسر أو المستنبط إلا تفرعات عن أصول تُمثلها المقاصد، وقد أدرك كثير من العلماء هذه الحقيقة وألحوا على لزوم الإلمام بالمقاصد بالنسبة إلى المفسر.

* وقد ظهر لنا من هذه الدراسة أن التصنيفات المختلفة لمقاصد القرآن تتأثر في كثير من الأحيان بخلفيات أصحابها الفكرية والعلمية، ومناهجهم في الإصلاح وأولوياتهم في ذلك.

* كان تفسير بعض السور التي وردت الأحاديث في فضلها، وكونها تعدل قدرًا من القرآن مناسبة لدى بعض المفسرين للحديث عن مقاصد القرآن الكريم، وذلك بالتأمل في أغراض تلك السور ومقاصدها، والمقارنة بينها وبين مقاصد القرآن عامة، وأبرز هذه السور: الفاتحة، والزلزلة، والكافرون، والإخلاص.

* أجمل الرازي « مقاصد القرآن » التي تضمنتها الفاتحة فجعلها أربعة: الإلهيات، والمعاد، والنبوات، وإثبات القضاء والقدر لله تعالى. ونلاحظ من هذا التقسيم لمقاصد القرآن أن الرازي جعلها دائرة على العقائد، ولم يذكر ميدان التشريع، مع أننا نلمس إشارة إلى هذا الجانب التشريعي في قوله تعالى: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ لأن الصراط المستقيم هو نهج يتحدد بعد الاعتقاد بالتزام الأوامر والنواهي، والآداب والأخلاق.

* مقاصد القرآن كما قررها السيوطي في تفسير الفاتحة هي: علم الأصول (معرفة الله وصفاته، والنبوات، والمعاد)، وعلم العبادات، وعلم السلوك، وعلم القصص، وهو تقسيم أكثر تفصيلاً وأوضح معالم من تقسيم الرازي السابق الذي اقتصر فيه على ما يتعلق بالعقيدة (الإلهيات، والمعاد، والنبوات، والقدر)؛ فقد شمل تقسيم السيوطي: العقيدة، والشريعة، والأخلاق، والقصص، وهذه المقاصد هي أهم مقاصد القرآن الكريم، كما اتضح لنا من مختلف تقسيمات العلماء لها.

* ذكر الألوسي من مقاصد القرآن: التوحيد، والأحكام الشرعية، وأحوال المعاد، وهو تقسيم مقبول على الرغم من عموميته، ولكنه لم يورد مقصداً هاماً هو مقصد القصص.

* جاء أبو حامد الغزالي بتقسيم لمقاصد القرآن تقوم

أركانه على التوحيد (تعريف المدعو إليه)، والمعاد أو الوعد والوعيد (تعريف الحال عند الوصول إليه)، والقصص (تعريف أحوال السالكين والناكبين)، وأحكام التشريع (تعريف عمارة منازل الطريق).

* ومما انفرد به الغزالي في تقسيمه جعله ما سماه (تعريف الصراط المستقيم) أو طريق القرب من الله مقصداً أساسياً مستقلاً مع أننا يمكن أن ندرجه ضمن المقصد الأول المتعلق بتعريف المدعو إليه. كما ميز الغزالي بين نوعين من المقاصد: أساسية وثنائية، أو ما سماه مقاصد مهمة وأخرى متممة، وهذا الأمر ذو أهمية بالغة في تصنيف المقاصد، ولعله سبب كثيراً من الاختلاف بشأنها. وقد أدرج الغزالي مقاصد الشريعة التي يعبر عنها العلماء بالكليات الخمس ضمن المقصد الأخير المتعلق بعمارة منازل الطريق، وهذا يؤكد كون مقاصد الشريعة تختلف عن مقاصد القرآن، فهي تنتمي إلى مقصد واحد من مقاصد القرآن الكريم.

* عامة المقاصد التي أدرجها رشيد رضا في تصنيفه لمقاصد القرآن متعلقة بالأحكام التشريعية في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهذا الأمر ناتج - كما يبدو - عن عدم فصله بين مصطلحي مقاصد القرآن ومقاصد الشريعة. وقد ضمن المقصد الأول مقصدين أساسيين هما: التوحيد والمعاد، ولم يردّ عنده ذكر لمقصد القصص على

أهميته، كما أن بعض المقاصد التي ذكرها رشيد رضا مقاصد فرعية ثانوية، كمقصد تحرير الرق، وقضايا المرأة.

* لا تعد المقاصد التي ذكرها الزرقاني من المقاصد بالمفهوم الذي يعني القضايا والمحاوور الكبرى للقرآن الكريم؛ إذ إنها تتعلق بالمقاصد العامة من إنزال القرآن أصلاً، وهي أقرب إلى خصائص القرآن الكريم.

* ذكر شلتوت ثلاثة مقاصد هي من أركان المقاصد القرآنية، فمقصد العقيدة يتضمن التوحيد والمعاد وما يتبعهما من الإيمان بالكتب والرسل، والأحكام هي مقصد أساسي من مقاصد القرآن، والأخلاق هي جانب مهم يمكن أن يشكل مقصدًا خاصًا، وقد تميز تصنيف شلتوت بجعل مقصد الأخلاق مستقلاً، ولكنه لم يورد مقصد القصص على الرغم من أن هذا المقصد يشكل شطر القرآن.

* يلاحظ على تصنيف ابن عاشور للمقاصد أنه تضمن المقاصد الأساسية للقرآن الكريم، فالمقصد الأول (الاعتقاد) يشير إلى مقصد التوحيد، والمقصد الثالث تضمن مقصد الأحكام بصفة عامة، والمقصد الخامس هو مقصد القصص، والمقصد السابع الذي سماه ابن عاشور المواعظ والإنذار، أو التحذير والتبشير هو مقصد الوعد والوعيد. وإذا اعتبرنا جانب الأخلاق مقصدًا خاصًا فقد تضمنه المقصد الثاني عند ابن عاشور، غير أن هناك ثلاثة

مقاصد ذكرها وليست من المقاصد الأساسية، وهي: سياسة الأمة، والتعليم، والإعجاز، أما سياسة الأمة والتعليم فهما مندرجان ضمن المقاصد الأخرى، ومتضمنان فيها، وأما الإعجاز فهو مقصد يتعلق بخصائص القرآن.

* تصنيف الشيخ محمد الغزالي لمقاصد القرآن احتوى على التوحيد والقصص والمعاد والتشريع، وما يستدعي التوقف في تقسيمه هو أنه جعل دلالة الكون على الخالق مقصداً مستقلاً، مع أنه يمكن أن يُضم إلى المقصد الأول المتعلق بالله الواحد؛ إذ إن ما في الكون من آيات وآلاء دلائل على الخالق... كما أنه لم يُفرد مقصد الأخلاق عن التشريع.

* التصنيف الذي اتبعه محمد الصالح الصديق يشوبه تداخل بين أبوابه؛ فقد ذكر التوحيد والعقائد منفصلين مع أنهما يشكلان مقصداً واحداً. وجعل التشريع والعبادات مقصدين مختلفين على الرغم من أن العبادات جزء من التشريع، كما أنه ذكر الإعجاز بين مقاصد القرآن، وهو من خصائصه. ومع ذلك تضمن تصنيف الصديق عامة مقاصد القرآن؛ التوحيد أو العقائد، والتشريع، والقصص، والأخلاق، أو ما سماه أصول المثل العليا، والمقصد الأساسي الوحيد الذي خلا منه تصنيف الصديق هو مقصد المعاد أو الوعد والوعيد، وهو مضمن في مقصد التوحيد أو العقائد.

* في التقسيم الذي اعتمده الشيخ القرضاوي يبدو

مصطلح المقاصد أقرب إلى مفهومه الأصولي الذي استخدمه علماء الأصول في حديثهم عن مقاصد الشريعة؛ ولكنه لم يسر على تقسيم الأصوليين للمقاصد، وباستثناء مقصد «تصحيح العقائد» الذي يقابل مقصد «التوحيد»، فإن القرضاوي جاء بتصنيف خاص ركز فيه على بعض القضايا، كتقرير كرامة الإنسان، وتكوين الأسرة، وبناء الأمة، والدعوة إلى عالم إنساني متعاون.

* استخدم عبد الكريم حامدي مصطلح مقاصد القرآن ولكن بمفهوم مصطلح مقاصد الشريعة، وعلى الرغم من أنه حاول أن يماهي بين المصطلحين فإنه ركز في تصنيفه لمقاصد القرآن ودراسته لها على مقاصد التشريع القرآني، لا على محاور القرآن الكريم والقضايا الكبرى التي عالجها؛ أي أن دائرة المقاصد التي بنى عليها الحامدي دراسته منحصرة في دائرة مقصد واحد من مقاصد القرآن؛ هو مقصد التشريع.

* توصل العلواني إلى تصنيف مجمل ولكنه تضمن مقاصد عامة؛ فمقصد التوحيد عنده يشمل المعاد؛ لأن المعاد يترتب على القول بالتوحيد، ومقصد التزكية الذي ذكره لا شك أنه يتضمن الأخلاق وطرفاً من التشريع. أما مقصد العمران فيشمل كل أحكام الشريعة، ولكنه يوحى بأنه يمتد إلى كل ما يبتدعه الإنسان ويتهدى إليه من وسائل ونظم حياتية تحقق مبدأ الاستخلاف وعمارة الأرض في إطار

العبودية لله ﷻ.

ولا شك أن مصطلح العمران الذي جاء به العلواني وجعله مقصداً من مقاصد القرآن يتصل اتصالاً وثيقاً بمنهجه في الدعوة والإصلاح؛ فهذا المنهج ينطلق من أن مشكلة المسلمين مشكلة حضارية مردها إلى إعراض المسلمين عن أسباب الحضارة والعمران التي أخذ بها الغرب فتقدم، وتخلف المسلمون لغفلتهم عنها.

* وإن أي دراسة لمقاصد القرآن ومعانيه ينبغي أن تنطلق من المقاصد الأساسية للقرآن الكريم كما تبلورت ملامحها من خلال جهود العلماء في استنباطها وتصنيفها والتعريف بها. وهذه المقاصد هي: التوحيد، والمعاد (الوعد والوعيد)، والتشريع، والأخلاق، والقصص.

ويمكن - من خلال تتبعنا لتصنيفات العلماء - أن نضع تراتبية للمقاصد تتوزع على خمسة مستويات:

* المستوى الأول: ويشمل العقائد عند الرازي، وهي أصل المقاصد.

* المستوى الثاني: ويشمل التوحيد والأحكام عند رشيد رضا، أو العقائد والتشريعات عند القرضاوي.

* المستوى الثالث: ويشمل التوحيد والأحكام الشرعية وأحوال المعاد عند الألوسي، أو العقيدة والأحكام والأخلاق

عند شلتوت، أو التوحيد والتزكية والعمران عند طه جابر العلواني.

* المستوى الرابع: ويشمل علم الأصول وعلم العبادات وعلم السلوك وعلم القصص عند السيوطي، أو التوحيد والمعاد والقصص وأحكام التشريع عند أبي حامد الغزالي، أو التوحيد والقصص والمعاد والتشريع عند محمد الغزالي، أو العقائد والتشريع والأخلاق والقصص عند محمد الصالح الصديق.

* المستوى الخامس: ويشمل الاعتقاد والأحكام والقصص والمعاد والأخلاق عند ابن عاشور.

ويمكن أن نختصر هذه المستويات في الشكل الآتي:

١م	العقائد
٢م	التوحيد والأحكام
٣م	العقيدة والأحكام والأخلاق
٤م	أو: التوحيد والمعاد والأحكام الشرعية علم الأصول وعلم العبادات
٥م	أو: التوحيد والمعاد وأحكام التشريع والقصص الاعتقاد والمعاد والأحكام والأخلاق والقصص

ومعنى هذا: أن هذه المقاصد يمكن أن تُختَصَر في العقائد (وتضم التوحيد والمعاد)، والشرائع (وتضم الأخلاق والأحكام)، والقصص، وإذا كان مقصد العقائد أو التوحيد ثابتاً مشتركاً بين جميع التصنيفات، ويليه مقصد الأحكام أو التشريع، فإن جانب القصص ليس مقصوداً لذاته، ولكنه مقصد يعزز المقاصد الأخرى، سواء ما تعلق منها بالعقائد أو بالتشريعات ولهذا السبب خلت منه بعض التصنيفات.



الفصل الثاني

مقاصد القرآن بين التدبر والتدبير

تَقْهِيْد

إن كل نشاط يتَّصل بالقرآن الكريم ينبغي أن يسترشد بمقاصد القرآن الكريم وغاياته الكبرى، فهذه المقاصد والغايات هي وجهة كل نشاط حياتي أو حضاري يستمدُّ من القرآن الكريم منهجَه، ويروم تحقيق رسالته في هداية الناس للتي هي أقوم.

وهذا المنهج المقاصدي في التعامل مع القرآن الكريم هو سبيل العقل المسلم في الخروج من ربقة التبعية والتقليد إلى رحاب الاجتهاد والتفكير والتجديد، مع وعي بالفرق بين الثوابت والمتغيرات التي كثيرًا ما انجر عن الالتباس بينها مشكلات حالت بين المسلمين وبين المنشود من الآمال، وشوَّهت نظرة المسلمين إلى حقائق الدين، ونظرة غيرهم إليهم ودينهم.

ومن هنا ندرك أن موضوع مقاصد القرآن يتنزَّل في صلب القضايا والمشكلات التي يواجهها المسلم المعاصر الذي تتنازعه مطالب الشرع المحكوم بالنص، وإكراهات الواقع بمتغيراته ونوازله.



أولاً:

معالم المنهج المقاصدي في التدبر

١ - التدبر بين إفراط وتفریط:

إذا كانت سور القرآن الكريم وآياته تدور على محاور عامّة تشكّل القضايا الأساسية التي أراد المولى سبحانه تبيانها للعباد وترسيخها في نفوسهم فما أحرى القارئ أن يُعْمَلَ قلبه في تدبر هذه المعاني والقضايا ليتعرّفها ويتبصّر أبعادها، ويهتدي بها في تأويل المعاني واستنباط الدلالات؛ لتكون له نبراساً في حسن العمل.

ولهذا كان تدبر القرآن غاية عزيزة ومطلباً عظيماً ورد ذكره في القرآن، وقُرِنَ ببركة التنزيل، وسموّ الأذكار: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].
والقرآن الكريم ميسر للذكر والأذكار، ولكن « لنصوصه إحياءات خاصة، ودلالات صائبة، وظلالاً لطيفة وارفة، ولطائف غالية نافعة، وتقوم هذه النصوص بإطلاق هذه الإحياءات وإلقاء هذه الظلال، والدعوة إلى تلك اللطائف .. وهذا يحتاج إلى قارئ حي بصير، يتبوأ الإيمان أولاً، ثم يتفاعل مع القرآن بكل كيانه، ثم يفهم عنه ما يوحي به من إحياءات »^(١).

(١) صلاح عبد الفتاح الخالدي، مفاتيح للتعامل مع القرآن (ص ١٠٥).

ويختلف التدبّر عن التلقّي العادي للحقائق والمعلومات؛ إذ التلقّي العادي أقرب إلى أن يكون فيه المتلقّي سلبياً لا يشارك بفكره، ولا يتصرّف فيما أُلقي إليه، بينما يشارك المتدبّر بفكره، ويجول بخواطره، رابطاً الحقائق بعضها ببعض، متصرفاً فيها تحليلاً وتركيباً ومقارنة، مستثمراً كل ذلك في استنتاج حقائق أخرى لا تقل أهمية عما بُنيت عليه من حقائق ومفاهيم. ومن هنا فرّق بعض الباحثين بين التعلّم والتفكّر؛ فالتعلّم يثمر حصول الحقائق في العقل، ولكنه يبقى ناقصاً يتطلّب اكتمالاً. وهذا الاكتمال يكون بضرب آخر من التعلّم هو الذي يمكن أن نسّميه بالتفكّر، وهو ضرب يتجاوز مجرد استيعاب الحقائق إلى التأمل فيها تأملاً عميقاً من حيث أسبابها وعللها، ومن حيث أبعادها ودلالاتها، ومن حيث علاقاتها، ومن حيث مآلاتها واستثماراتها، بحيث ينتهي العقل من هذا التفكير إلى وضع « يصبح فيه قادراً على التصرّف في ذلك المخزون من العلوم والمعارف الحاصلة لديه بالاستيعاب تصرفاً تصبح فيه فاعلة في المجرى العملي للحياة، فتتقدّم بها الحياة نحو أهدافها في التعمير، بدل أن تبقى صوراً من الحقائق جامدة غير مستثمرة، وعاطلة غير فاعلة »^(١).

وقد اشتطّ أقوام في شأن التدبّر بين تفريط وإفراط؛ فالمفرطون أعرضوا عن التدبّر، ولم يؤلّوه ما ينبغي من حرص

(١) عبد المجيد النجار، مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة (ص ١٣٦).

واهتمام، فقرأوا القرآن معتقدين أنه لا يحق لهم أن يُعْمِلُوا فِكْرَهُمْ فِي تَأْمُلِهِ وَتَدَبُّرِهِ وَاكْتِنَاهِ أَسْرَارِهِ وَحَقَائِقِهِ؛ لَأَنَّ ذَلِكَ حَكْرٌ عَلَى الرَاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ مِنَ الْبَشَرِ... » وهذا اعتقاد كثير من المسلمين الذين صرَفَهُمْ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ، وَتَذَكُّرُ مَا فِيهِ مِنَ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ، اعْتِقَادُهُمْ صُعُوبَةَ فَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ، وَهُوَ خَطَأٌ فِي مَفْهُومِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَانْصِرَافٍ عَنِ الْغَايَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أُنْزِلَ «^(١)».

وَأَفْرَطُ قَوْمٍ فِي التَّأْوِيلِ حَتَّى تَعَسَّفُوا وَحَمَلُوا الْآيَاتِ وَالْأَلْفَافَ مَا لَا تَحْتَمِلُ، وَهَذَا حَالٌ كَثِيرٌ مِنَ الْفِرَاقِ الَّتِي نَظَرَ أَصْحَابُهَا فِي الْقُرْآنِ نَظْرَةً مَقْلُوبَةً؛ فَبَدَلَ أَنْ يَبْحَثُوا فِي أَصُولِهِ لِيَتَحَاكَمُوا إِلَيْهَا، «نَظَرَ كُلُّ فَرِيقٍ فِيهِ بَاحِثًا عَمَّا يُؤَيِّدُ مَذْهَبَهُ الَّذِي اعْتَنَقَهُ عَنْ هَوًى، أَوْ عَنْ طَرِيقِ نَظْرَةٍ جَزْئِيَّةٍ عَجَلَى، تَجْعَلُ مِنَ الْآيَةِ الْوَاحِدَةِ أَصْلًا يَنْزِلُ عَلَيْهِ مَا عَدَاهُ، بَلَا اسْتِقْرَاءَ لِمَوْقِفِ الْقُرْآنِ الْكَلِيِّ مِنَ الْمَوْضُوعِ» «^(٢)».

وَمِنَ الْانْحِرَافِ عَنْ حَقِيقَةِ التَّدَبُّرِ، التَّعَسُّفُ فِي الْبَحْثِ عَنْ مَبْهَمَاتٍ لَمْ يُطْلَبِ الْبَحْثُ عَنْهَا، وَلَا يَنْفَعُ شُغْلُ النَّفْسِ بِهَا وَالْجِدَالُ فِيهَا؛ كَالْبَحْثِ فِي نَوْعِ «الشَّجَرَةِ الَّتِي أَكَلَ مِنْهَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»، وَنَوْعِ عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَسْمَاءِ أَهْلِ الْكَهْفِ وَكَلْبِهِمْ، وَالثَّمَنِ الَّذِي بَاعَ بِهِ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاسْمِ الْحَاكِمِ الَّذِي حَاجَّ

(١) خالد بن عبد الكريم اللاحم، مفاتيح تدبر القرآن (ص ٢٣).

(٢) عبد الستار فتح الله سعيد، المدخل إلى التفسير الموضوعي (ص ٥٢).

إبراهيم في ربه، واسم الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، واسم الذي عنده علم من الكتاب عند سليمان عليه السلام وغير ذلك»^(١).

وهكذا فإن التدبر ينبغي أن ينضبط بضوابطه ويكون وسطاً بين إفراط وتفریط؛ بين تأويل الجاهلين (المفرطين) وتعطيل المتحرّجين المفرطين.

٢ - معالم المنهج المقاصدي وفوائده:

أ - المقاصد والتدبر:

لا شك أن لمعرفة مقاصد القرآن أهمية كبيرة في التدبر، ذلك أن توجيه المعنى أو الترجيح بين الدلالات المختلفة، أو استنباط الأحكام والأبعاد المختلفة للنص يعتمد على الإلمام بالمقاصد العامة للقرآن الكريم، وما المعاني والدلالات التي تواجه المفسّر أو المستنبط إلا تفرّعات عن أصول تمثلها المقاصد.

وقد أدرك كثير من العلماء هذه الحقيقة وألحوا على لزوم الإلمام بالمقاصد بالنسبة إلى المفسّر؛ فهذا الإمام الشاطبي يُعد الاهتمام بمقاصد القرآن أساس التدبر والاستنباط؛ حيث قال في سياق الرد على من زعم أن للقرآن ظاهراً وباطناً: «... وإذا حصل التدبر لم يوجد في القرآن اختلاف البتّة... فالتدبر إنما

(١) صلاح عبد الفتاح الخالدي، مفاتيح للتعامل مع القرآن (ص ٩٦).

يكون لمن التفت إلى المقاصد، وذلك ظاهر في أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن فلم يحصل منهم تدبر «.

فالمقاصد بالنسبة إلى المفسر هي البوصلة التي تهديه إلى أقرب المعاني والدلالات، وتعصمه من أن يذهب بعيداً عن ما يتطلبه توجيهه والتأويل، وما يستدعيه التفسير والاستنباط. والمنهج المقاصدي - تبعاً لذلك - هو المنهج الذي « ينطلق دائماً من كون صاحب النص له مقاصد معينة ومعان محددة عنده، هي التي أراد تبليغها للمخاطب، وأراد من المخاطب فهمها واستيعابها وأخذها بعين الاعتبار، وأن اللازم هو تحرّي مقاصد الخطاب كما يريد صاحبها، والوقوف عندها بلا نقصان ولا قصور»^(١).

وفائدة هذا المنهج أنه يهيئ القارئ المتدبر للاقتراب من مقاصد الآيات والنصوص، ويجنبه الشطط في التفسير والتأويل، ويعفيه من الوقوف عند ما لم يطلب منه البحث فيه من المبهمات. كما أن إدراك المقصد هو عون على القراءة والتدبر والعمل، يقول أحمد الريسوني متحدثاً عن أهمية الوعي بالمقاصد في العمل: « ... الإنسان حين يُقدّم على عمل وهو لا يدري لماذا هذا العمل، ولا يدري النتائج التي يسعى إلى بلوغها والفوائد التي يعمل لجلبها وتحصيلها، ولا يدري قيمة ما هو فيه، وجدوى ما هو بصده، هذا الإنسان

(١) أحمد الريسوني، الفكر المقاصدي وقضايا السياسة المعاصرة (ص ١٠٤).

عادة ما يصاب في عمله وسعيه بتحيّر واضطراب، أو بكلل وملل، أو بضجر وانقطاع»^(١).

ب - النظرة الشاملة للقرآن:

أول مفاتيح المنهج المقاصدي هو النظرة الشاملة للقرآن، فهذه النظرة الشاملة هي منطلق أساسي لفهم نصوص القرآن وتدبرها، ومتلقي القرآن وفق هذا المنهج المقاصدي « يتجاوز بفكره ونظره ما يبحث عنه الآخرون من موضوعات وأمور جزئية جانبية، وهو وإن كان يجدها في أثناء التعامل معه، فإنها تمثّل بالنسبة إليه نظرات ثانوية مكملّة للنظرة الشاملة ومتمّمة لها، تزيدها مكاسب وعلومًا ومعارف»^(٢).

وتتحقق النظرة الشاملة للقرآن بالالتفات إلى الأهداف الأساسية التي جاء القرآن ليُرسّيها، والمحاور الكبرى التي دارت حولها سورته وآياته، ولا شك أن لهذا المنهج في التعامل مع القرآن الكريم فوائد جمّة وثمارًا جليلة.

وانطلاقًا من الأغراض الأساسية للقرآن، وتطبيقًا للمهمّة العملية الحركية له، فإن القارئ البصير لا بد أن يلاحظ البعد الواقعي لآيات القرآن، وأن يلتفت إلى انطباقها على الواقع المعاصر، وأن يدرك معالجتها له وتقويمها لأُموره، وإصلاحها لمنهجها ومظاهرها الحياتية فيه، وسيجدها حينئذ

(١) المرجع نفسه (ص ١٢٦).

(٢) صلاح عبد الفتاح الخالدي، مفاتيح للتعامل مع القرآن (ص ٧٥).

تصف له حياته، وتحدث له عن واقعه، وتهتم بالقضايا والمشكلات التي حوله... وسيجدها سوراً حية حكيمة متفاعلة قائدة وموجهة^(١).

وأولى هذه الثمار هي «إصلاح طريقة التفسير وإنضاجه، وذلك بحصر الجهود في الحقائق والمقاصد القرآنية، وجمع العزائم عليها، ليأخذ التفسير وجهته الصحيحة؛ لأن القرآن العظيم هو كتاب الهداية، وهدايته تكمن في مقاصده ومعانيه»^(٢).

ج - النظرة المتوازنة إلى حقائق الدين:

من ثمرات المنهج المقاصدي أنه يُكسبُ صاحبه النظرة المتوازنة إلى حقائق الدين وما يتصل به من مجالات الحياة، فلا يؤخر ما حقه التقديم، أو يقدم ما حقه التأخير، ولا يصغر الأمر الكبير، ولا يكبر الأمر الصغير، بل يراعي النسب بين الأعمال والتكاليف الشرعية^(٣).

إن الإخلال بالنسب التي وضعها الإسلام للتكاليف الشرعية يحدث ضرراً بليغاً بالدين والحياة، فالعقيدة في الإسلام مقدّمة على العمل؛ لأنها الأساس، والأعمال هي

(١) صلاح عبد الفتاح الخالدي، مفاتيح للتعامل مع القرآن (ص ١٢١).

(٢) عبد الستار فتح الله سعيد، المدخل إلى التفسير الموضوعي (ص ٥٣).

(٣) يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة (ص ٣٥).

البناء، ولا بناء بغير أساس، وبعد العقيدة تأتي الأعمال، وهي متفاوتة تفاوتاً بعيداً، وقد جاء في الحديث الصحيح: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»^(١).

ويقتضي هذا المنهج أن يهتم المسلم بالأشياء على قدر اهتمام القرآن بها، وذلك بالنظر إلى أن عناية القرآن بأمر ما معيار لأهميته؛ فما غني القرآن بذكره من المعاني والموضوعات وجعله في بؤرة اهتمامه، وكَرَّرَ الحديث عنه بصورة وأخرى، وبأسلوب وآخر، يجب أن يأخذ من عنايتنا واهتمامنا المكان اللائق به في الفكر والشعور والسلوك، وأن يكون لذلك أثره العلمي في ميادين التثقيف والتربية والتشريع اقتداءً بالقرآن؛ لأن القرآن الكريم ما كَرَّرَ هذا الأمر وأكدّه في أكثر من سورة وأكثر من مناسبة، وبأكثر من أسلوب، إلا لأن له أهمية ومنزلةً وأثراً في الدين والحياة تُوجب الالتفات إليه، والتنبيه إليه، وإعطائه حقه من التأمل والعناية الفكرية والعاطفية والعملية، على قدر حجمه في القرآن^(٢).

وحين أهمل بعض المسلمين هذا المعيار وقعوا فيما وقعوا فيه من التركيز الشديد على الفروع والذيل والجزئيات والهوامشيات من الأمور على حساب الأصول

(١) المرجع نفسه (ص ٣٥). والحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم (٥٨)، (٦٣/١).

(٢) يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن؟ (ص ٥٢٤).

والكليات والأساسيات من الفرائض المأمورات والمحرمات، بل الكبائر من المنهيات؛ ولهذا التركيز مثالبه وأخطاره التي لا ريب فيها. وأول هذه المثالب والمآخذ أنه مخالف للمنهج القرآني والنبوي؛ « فالقرآن الذي أنزله الله في ثلاث وعشرين سنة، ظل ثلاث عشرة منها - أي طول العهد المكي - يُعنى بإيضاح الأصول والكليات من العقائد والأخلاق والأعمال، وغرسها في الأنفس والعقول، وتعبئة العزائم والمشاعر للالتزام بها، بالدعوة والتشويق والوعد والوعيد وضرب الأمثال، وسوق القصص »^(١).

ومن التطبيقات العملية لهذا الأمر، ما يجده المتأمل من تفاوت كبير بين نسبة الآيات الدائرة على العقائد والأفكار والمفاهيم والتصورات عن الخالق والمخلوق، وتلك الآيات المتضمنة للأحكام العملية الشرعية في أبواب العبادات والمعاملات. فمع أن بعض الأحكام لم يرد ذكرها في أكثر من آية أو آيتين فإن بعض المسلمين تعامل معها تعاملًا يوحى بمداناتها - أو ربما هيمنتها - على ما يمثل الأصل من العقائد والأخلاق، وفي هذا يقول الشيخ يوسف القرضاوي: « ينبغي إعادة النظر في موقفنا من الآيات المتعلقة بالأحكام العملية مثل الشعائر والحدود وأحوال الأسرة والمعاملات، والآيات الأخرى المتعلقة بالتوجيه الإيماني والفكري والأخلاقي،

(١) يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن؟ (ص ١١٦، ١١٧).

والعناية بالالوهية والنبوة والآخرّة، والكون والحياة والإنسان وأصول الأخلاق، فضائل مأمور بها، أو رذائل منهي عنها، فقد أخذت الآيات الأولى، وهي محدودة - حيث قدرت بنحو خمسمائة آية - مساحة كبيرة من فكرنا وثقافتنا وتربيتنا، على حين أهملت الآيات الأخرى إلى حدّ كبير، ولم تنل حقها بما يساوي حجمها في ميادين التوجيه والتثقيف والتفكير والتشريع»^(١).

إن الله الذي خلق كل شيء بقدر أنزل آيات قرآنه بقدر، وضمنها من العقائد والأحكام والشرائع والتوجيهات ما قدّر بقدر، فلا ينبغي تجاوز هذه الحقيقة عند النظر في القرآن وتدبره.

هذا هو المنهج العام الذي ينبغي اتباعه في التعامل مع القرآن الكريم، وهو منهج يشمل أثره عامة المجالات التي يتناولها القرآن الكريم، وذلك ما نريد تفصيل القول فيه ضمن الموضوع الآتي.



ثانيًا:

نحو استثمار للمنهج

المقاصدي في التدبر

إن المنهج المقاصدي ينبغي أن يُستثمر في تدبر مختلف القضايا والمحاور التي دارت عليها سور القرآن الكريم وآياته، ويمكن لهذا المنهج أن يُثري التناول ويضبط الفهم ويُصحح النظر ويسدّد الاجتهاد، وهذا المنهج هو سبيل النظر المتوازن، وأساس العمل المسدد، وقوام الاجتهاد المنضبط، ومنبع التجديد الحي.

وقد اخترنا ثلاثة مجالات يبرز أثر المنهج المقاصدي فيها بوضوح، وهذه المجالات هي:

- مجال العقيدة والإيمان.
- مجال الشعائر والعبادات.
- مجال الفضائل والأخلاق.

وإنما اخترنا هذه المجالات الأساسية الثلاثة لتبيين أثر البعد المقاصدي في تصحيح نظرنا إليها وتعديل تصوراتنا بشأن حقائقها، ولهذا الضبط (النظري) أثره الكبير في سداد العمل وفاعليته بعد ذلك.

١ - التدبر المقاصدي وفاعلية الإيمان:

أ - العقيدة بين الجدل العقلي والتفاعل الوجداني:

المنهج المقاصدي ينبغي أن يكون منهجاً يقود إلى تجديد الإيمان وتناول قضايا العقيدة الإسلامية بما يوافق التصور الإسلامي الصحيح، ويحفظ للعقيدة حرارتها وتأثيرها في الأنفس والحياة؛ لأن الغاية من سوق قضايا العقيدة وحقائق الإيمان في القرآن ليس تقرير معلومات تُحشى بها الأذهان، أو البرهنة على حقائق مجردة بأساليب الجدل والحجاج العقلي المعزول عن تفاعل الوجدان، كما ساد في كتب العقائد ومناهجها المتأخرة التي غاب عنها البعد المقاصدي في تناول قضايا الإيمان والعقيدة، فخيم عليها وعلى النظر العقدي والخطاب العقدي « طابع كلامي جدلي يغرق شيئاً فشيئاً في النزعات الفلسفية والنزاعات المذهبية... وأصبح الدرس العقدي والخطاب العقدي مدعاةً للتنافر والنفور، وأصاب العقائد الإسلامية الخمول والوهن، وفقدت الكثير من حرارتها وتوهجها وتأثيرها »^(١).

ومكمن الخطورة في هذا الأمر أن العقيدة هي محرك حياة الإنسان، فإذا أصيب المحرك بالخلل تعطلت الآلة التي صنع لأجلها، ولم يعد يُرجى منها أن تضطلع بما أوكل إليها من مهمات، إلا أن يُصلح العطل ويُزال العطب، وكذلك العقيدة،

(١) أحمد الريسوني، الفكر المقاصدي (ص ١٤٠).

« تحتفظ في جوهرها بقوة سماوية تُخضع الدنيا كلها، والحياة بأسرها لسلطانها... وهي إن لم تتحول إلى سلوك في نفس الفرد فهي عقيدة لا تنبض بالحياة، إنها طاقة، ولكن ما قيمة الطاقة إذا ظلت كامنة في مكانها، ولم يمتد تيارها إلى سلوك الإنسان لتُحدث فيه الضوء والحرارة والنور »^(١).

حين أهمل المنهج المقاصدي وقع الانحراف في تناول قضايا العقيدة والإيمان، وغلبت المعارف النظرية فيها على السلوك العملي. بل تحولت هذه المعارف النظرية إلى عبارات ومعلومات لا تأثير لها في واقع أصحابها، وأصبحت تلك العبارات لا تُنال إلا عبر جدل عقلي ومباحكات لفظية لا تمتُّ إلى روح العقائد الإسلامية بصلة، مع أن الإيمان الحق « ليس مجرد معرفة ذهنية لا تنفذ أشعتها إلى القلب فتضيئه، ولا إلى الإرادة فتحركها، ولا مجرد حشو للذاكرة بعبارات ومصطلحات عن معاني الرب والإله، والدين والعبادة، والتوحيد بأقسامه، والطاغوت والجاهلية، والامتلاء عجباً وغروراً بأن هذا هو كل الإيمان، ومحض اليقين، وشغل الآخرين بمعارك جدلية حول هذه الألفاظ على أهميتها »^(٢).

ب - المنهج القرآني في عرض العقيدة:

إذا أراد المتدبر منهلاً للعقيدة كما هي دون شطط

(١) عبد العال سالم مكرم، أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع (ص ٧٥).

(٢) يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية (ص ٧٣).

ولا تعسف فليس أقرب إليه من القرآن الكريم ينهل من معينه الصافي عقيدة حيّة متوثبة فاعلة مؤثرة واضحة، وهذا ما غاب عن كثير من المتكلمين الذين تناولوا مسائل العقيدة، وذلك أنهم اعتبروا نصوص القرآن « مجرد أخبار من الله تعالى، لا تحمل دلائل وبراهين عقلية تقنع الطالبين للحق وتفحم المجادلين بالباطل، مع أن القرآن حافل بهذه الدلائل »^(١).

ولا يحتاج الناظر في القرآن الكريم إلى جهد كبير ليعرف أن المقصد الأول للقرآن الكريم هو التوحيد، وأن يُخلص العبد ما عليه تجاه خالقه من الإيمان الخالص من الأوهام، وأن يتحقق بما يستتبعه هذا الإيمان من عبودية وطاعة لله وحبّ وتعظيم.

وهذا المعنى هو محور جميع السور والآيات، على كثرة ما حوت من تنويعات، وتضمنت من تفصيلات، يقول الشيخ الغزالي: « وقف القرآن موقفاً شاملاً في باب الوجدانية والتوحيد، وعني بأمر الوجدانية والتوحيد غاية العناية، وأبرزهما في الآيات المكية والمدنية جميعاً... لأن الوجدانية صفة جامعة من صفات الله تعالى، والتوحيد عقيدة ملزمة لا يُقبل عمل العبد إلا إذا قام بها على وجهها الشرعي. ولأن التوحيد هو العقيدة التي كثر فيها انحراف البشر عن حقائق الفطرة التي خلّقوا عليها، وعن حقائق

(١) المرجع نفسه (ص ٥٦).

الوحي الإلهي الذي جاء على ألسنة الرسل جميعاً ﷺ»^(١).
 إن منهج القرآن في تناول قضايا العقيدة والإيمان منهج فريد؛ فهو يتناول هذه القضايا بشكل غزير كثير، ولكنه يعرضها عرضاً ذا مسار محدّد لا تتشعب مسالكه في التفصيلات والتفريعات، ولا تتيه المسائل التي يعرضها بين ثنايا البراهين والمجادلات، هو عرض لا يكتفي بدغدغة عواطف القلب على حساب صرامة العقل، ولا يجنح إلى إقناع العقول بالحجج والبراهين بعيداً عن دوائر التأثير القلبي. بل « يأخذنا القرآن الكريم في جولات وجولات نرتاد آفاق السماء، ونجول في جنبات الأرض، ويقف بنا عند زهرات الحقول، ويصعد بنا إلى النجوم في مداراتها، وهو في كل ذلك يفتح أبصارنا وبصائرنا، فيرينا كيف تعمل قدرة الله وتقديره في المخلوقات، ويكشف لنا أسرار الخلق والتكوين، ويهديننا إلى الحكمة من الخلق والإيجاد والإنشاء، ويبين عظيم النعم التي حباها بها في ذوات أنفسنا وفي الكون من حولنا... وهو حديث مشوّق تنصت إليه النفس، ويستلذه السمع، ويستثير المشاعر والأحاسيس»^(٢).

وفي سياق إيراد حقائق الوجدانية يجد المتدبّر في القرآن عرضاً لهذه الحقائق في ثنايا الحديث عن آيات الكون ودلائل

(١) عبد الستار فتح الله سعيد، المدخل إلى التفسير الموضوعي (ص ١٠٤).

(٢) عمر سليمان الأشقر، العقيدة في الله (ص ٩٦).

القدرة وبيّنات العظمة، ممزوجة بالامتنان على الإنسان، وتذكيره بأصل خلقته وصيرورته ودعوته إلى التفكير في معاده. فأيات الكون تُساق لغرض عرض ربوبية الله تعالى وقدرته للاستدلال بها على وجوب إفراده تعالى بالعبادة والطاعة، « فهو الخالق وهو المالك وهو الرازق، وهو الذي له المعاد وبيده الملك، وهو الرب القائم على إصلاح خلقه وتربيتهم، وهو معنى الربوبية، وتلك أدلة على استحقاقه وحده للعبادة، وهذا هو معنى الإله »^(١).

ولا يفارق مقصد التوحيد آيات القرآن وسوره، حتى ما يبدو منها غير خالص لذلك كالفَصَص مثلاً؛ فكل الفَصَص في القرآن إنما « سيق لبيان قصة الخلق مع (لا إله إلا الله) وليبان أن كلّ رسول حمل هذه الجملة وكانت هي رسالته ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: ٢]، يقص سبحانه علينا كيف استقبل الخلق هذه الرسالة بهذه الكلمة، وكيف صبر النبيون من أجلها، ثم ماذا كانت عاقبة مَنْ قَبِلَهَا، وعاقبة مَنْ أَبَاها »^(٢).

وهذا الأمر من شأنه أن يعزّز سلطان العقيدة والإيمان في نفس المتدبّر، ويدفع به نحو ما تتطلبه هذه العقيدة والإيمان من إخلاص واستقامة وصبر واجتهاد، وأوّل ثمار ذلك هو

(١) مدحت ممدوح القصر اوي، مقاصد القرآن الكبرى (ص ١٦٩).

(٢) المرجع نفسه (ص ١٩).

تنقية النِّيات من كل شائبة تندسُّ لتفسد العمل والسلوك، وتربية الضمير الباعث على العمل. والإسلام في ضوء العقيدة قد ربَّى هذا الضمير تربية متكاملة، فهو الرقيب على العمل، وإن كلَّ عملٍ خلا من الضمير كان باطلاً ولغوًا غير مثمر؛ ذلك لأن العمل مرتبط بالعقيدة وموجَّه إلى الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] ^(١).

ج - أثر العقيدة في السلوك:

إن كل خلل في بناء العقيدة من شأنه أن يترك أثره في شخصية الفرد وخلق وسلوكه، وهذا هو سر حملة القرآن التي لا هوادة فيها على كل ما لصق بالعقيدة الصحيحة من أوهام وخرافات، وعلى رأس هذه الأوهام الشرك الذي عدَّ أعظم جريمة يمكن أن يرتكبها إنسان؛ لما فيه من ظلم للحقيقة وتزوير للواقع، وانحطاط بالإنسان إلى مرتبة العبودية والخضوع للمخلوقات. ذلك أن «دعوة التوحيد هي أساس الحرية الحققة؛ إذ لا حرية لمن يقُدَّس بشرًا أو يعبُد حَجَرًا، وهي أساس الإخاء والمساواة؛ لأنها تقوم على اعتقاد أن الناس جميعًا عباد الله، وأنهم أبناء أب واحد وأم واحدة، فهم إخوة بعضهم لبعض، وليس بعضهم أربابًا لبعض» ^(٢).

ومن ثمار العقيدة اليانعة أنها تُكسب صاحبها سَكينة

(١) عبد العال سالم مكرم، أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع (ص ١١١).

(٢) يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن؟ (ص ٨٣).

وسعادة وثقة وطمأنينة عزّت في هذا العصر الذي انتشرت فيه الأمراض النفسية، والانهيّارات العصبية التي تقود - في غياب صمام الأمان الذي يوفره الإيمان - إلى الانتحار أو الجنون أو الانطواء والسلية القاتلة. أمّا مَنْ رسخت العقيدة في نفسه فإن « الأمراض النفسية التي استبدت بالإنسان في مختلف العصور - وبخاصة في عصرنا الحاضر - لا تجد طريقاً إلى نفسه، إن إنسان هذا العصر تستبدُّ به الهموم، وتطارده المشكلات ولا يستطيع أن ينتصر على ما يصادفه، مما يجعله يهرب من حياته، أو يسقط صريعاً مؤثراً الانتحار على الحياة، واليأس على العمل »^(١).

ولا يقتصر أمر العقيدة على ما يتّصل بالفرد مع نفسه ومجتمعه، بل يمتدُّ ليشمل الكون كلّهُ؛ حيث يأنس الإنسان بالكون وما فيه من مخلوقات مسبّحة خاضعة لخالقها، ومسخرة للإنسان بما يُعينه على مهمّة العبودية والاستخلاف، حين يرى الكون كلّهُ بمخلوقاته كوناً مسبّحاً خاشعاً قانتاً مطيعاً ساجداً^(٢).

وهذا من أكبر دواعي الاطمئنان والألفة التي تنشأ بين الإنسان وبين الكون الذي يعيش فيه، ويدرك هذا الأمر مَنْ تأمّل حال الإنسان في الحضارة الغربية الحديثة، فإن هذه

(١) عبد العال سالم مكرم، أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع (ص ٧١).

(٢) مدحت ممدوح القصراوي، مقاصد القرآن الكبرى (ص ٢١٠).

الحضارة حين قصرت اهتمامها على الآدميين، ولم يتسع أفقها إلى غيرهم من الكائنات في الكون الرحب، قطعتهم عنها وأحدثت في لاوعي الإنسان المعاصر انفصلاً خطيراً عن الطبيعة، فكان أن حَصَدَ الإنسان الغربي المعاصر من ذلك خوفاً غريباً مردُّه إلى ما نتج عن إلغاء حرمة الطبيعة والثورة عليها، حين لم يستطع الإنسان أن يضمن لنفسه ما يدفع به الأخطار التي سبَّها بنفسه وبسوء تقديره، فأصبحت هذه الأخطار تهدد الحياة والبيئة والأرض جميعاً... في حين يسع التصور القرآني الموجودات كلها، وفق مبدأ التراحم الذي يقضي بإيجاد عالم تكون فيه العلاقات بين الأحياء والأشياء جميعاً علاقات بين أقرباء، أقرباء فيما بينهم، وأقرباء من الرحمن الذي يتجلَّى عليهم لا بقهره، وإنما برحمته^(١).

د - المعاد جزء من العقيدة:

يتفرَّع عن عقيدة التوحيد ما يتعلق بعقيدة الآخرة والجزاء؛ فالمتدبر للقرآن الكريم يجد تلازماً بين الحديث عن التوحيد والحديث عن المعاد؛ ذلك أنه لا معنى للإيمان بإله واحد خالق رازق يأمر وينهى، ويعد على الطاعة ويوعِد على المعصية، ثم لا يوصل ذلك بالإيمان بيوم يُردُّ فيه الناس إلى خالقهم؛ ليحاسبوا على ما قدَّموا.

وقد سلك القرآن الكريم في تثبيت الإيمان بالمعاد

(١) ينظر: طه عبد الرحمن، روح الحداثة (ص ٢٦١).

أساليب لا تختلف عن أسلوب تثبيت عقيدة التوحيد بشكل عامّ إلا في بعض التفاصيل، ومن ذلك « التنبيه على خلق الأجرام العظيمة التي يُعتبر خلق الإنسان بجوارها شيئاً هيناً، وبيان حكمة الله تعالى في الجزاء؛ حتى لا يستوي المحسن والمسيء، والبرّ والفاجر في النهاية، وبيان ما ينتظر المؤمنين الأبرار في الآخرة من المثوبة والرضوان، وما أعدّ للكفرة الفجرة من العقاب والخسران، وإبطال الأوهام التي أشاعها الشرك والمشركون من أن لهم آلهتهم المزعومة تشفع لهم عند الله يوم القيامة »^(١).

ويكاد يتلازم في حديث القرآن عن الآخرة والمعاد أسلوباً الوعد والوعيد، وإذا كان مظهر الرحمة بالخلق في الوعد والترغيب ظاهراً جلياً في حديث الجنة ونعيمها، وما أعدّ الله فيها لعباده، ولطفه بهم إذ خلقهم وبصرهم وهداهم وعفا عنهم فجزاهم، فإن في ذكر الوعيد والترهيب رحمةً ونعمةً من نوع آخر، إنها « الرحمة بالخلق والإنعام عليهم بتحذيرهم أسوأ المهالك على الإطلاق »^(٢).

ومن هنا فإن الآخرة وما فيها من وعد ووعيد هي ضرورة لإصلاح الدنيا ذاتها، إنها ليست حديثاً معزولاً عن الواقع والحياة وما فيهما من حركة، بل هي محور هذه الحياة والخيط

(١) يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن؟ (ص ٨٧).

(٢) مدحت ممدوح القصراوي، مقاصد القرآن الكبرى (ص ٢٣٥).

الذي ينبغي أن ينتظم جميع شؤون البشر بصورة إيجابية تحفظ على الإنسان أمنه النفسي والمجتمعي، ف«لولا أن الله تعالى قرّرها وركّز لواءها لتحولت الحياة الدنيا إلى غابة وحوش، وفوضى وصراع لا سبيل معه إلا انتحار المجتمعات، واندحار الحضارات، وانهيار الحقائق والقيم التي تقوم عليها الحياة، وتحولها إلى سعار مدمر، وشجار رهيب؛ ولذلك يربط القرآن كثيرًا بين مظاهر الخلل والفساد وبين إنكار الآخرة، أو إهمال شأنها»^(١).

وهكذا فإن التدبر المقاصدي للقرآن يثمر لدى المتدبر إدراكًا متينًا لمكانة الجانب العقائدي وكونه أساس كل انتماء، وشرط كل عمل، فإذا تحرك ببصره أو ببصيرته بين أرجاء الكون الفسيح رأى فيه دلائل القدرة وآيات العظمة، فانضم إلى سائر المخلوقات مسبّحًا خاشعًا خاضعًا لله.

٢ - التدبر المقاصدي وروح الشريعة:

أ - الشريعة من مقتضيات العقيدة:

تمثل الأحكام الشرعية بمفهومها العملي الشق المقابل للعقائد، ولكنهما في الحقيقة كوجهي الورقة لا ينفصلان، أو هكذا يفترض أن يكونا. فلا معنى للإيمان إذا لم يحمل صاحب على التزام ما يتطلبه ويقتضيه هذا الإيمان من واجبات وأحكام عملية؛ ولذلك نجد في القرآن تلازمًا تامًا بين العقيدة

(١) عبد الستار فتح الله سعيد، المدخل إلى التفسير الموضوعي (ص ٢٤٣).

والشريعة، وارتباطاً شديداً بين الإيمان والعمل الصالح، وهذا هو سر تكرار العبارة التي تصف المؤمنين بأنهم ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥]. ف « الإسلام إيمانٌ يصدّقه العملُ، والعقيدة هي المعبرة عن الإيمان، والشريعة هي المعبرة عن العمل، سواء كان هذا العمل مما يتصل بعلاقة الإنسان بربه كالعبادات الشعائرية الكبرى... أم كان مما يتّصل بعلاقة المرء بأسرته... أم كان مما يتّصل بالعلاقات المدنية والمالية والسياسية بين الأمة بعضها وبعض، أم بالعلاقات الدولية بين الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم في السلم أو في الحرب، إلى غير ذلك مما جاءت به شريعة القرآن »^(١).

الإيمان كما يرد في القرآن ليس تصوّراً ذهنيّاً معرفيّاً كتصوّرات الفلاسفة التي تبقى أفكاراً ذهنية ومفاهيم نظرية لا أثر لها في واقع الناس وحركة حياتهم. بل العقيدة الإسلامية كما يجدها المتدبّر لكتاب الله ليس لها إلا أن تتحول إلى عمل، وليس لصاحبها إلا أن يسارع إلى امثال مقتضياتها في حياته حتى تغدو حياته وحدة مترابطة منسجمة لا تعارض ولا تناقض فيها، « فعقيدة المسلم تحكم باطنه، وشريعة الإسلام تحكم ظاهره ومجتمعه، وتترابط العقيدة والشريعة لتؤلّف منهجاً متكاملًا يهيمن على حياته كلها »^(٢).

(١) يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن؟ (ص ٦٠).

(٢) عمر سليمان الأشقر، خصائص الشريعة الإسلامية (ص ٢٥).

ب - خطر الفصل بين الإيمان والعمل:

الإيمان في تصور كثير من المسلمين علم لا لزوم معه للعمل، فهم يعتقدون أن « مجرد معرفة ذهنية، يُحسَى بها العقل، وتخزَّن في الذاكرة، ويلقَّنها تلقيناً... كافية وكفيلة بأن تنجي صاحبها من النار، وتؤهِّله لدخول الجنة في الآخرة، وتجعله أهلاً لولاية الله تعالى ونصرته ودفاعه في الدنيا.

وبعض المسلمين يأتي من العبادات بالشيء قلَّ أو كثر، ولكنه يغفل عن الجانب المقاصدي للقرآن وللعبادات ذاتها، فيكون عرضة لأنواع من الشطط والانحراف، أولها اعتقاده بأن أشكال العبادات ومظاهرها مغنية عن حقائقها وجواهرها، يقول الشيخ الريسوني: « نجد كثيراً من المسلمين يصلُّون ويصومون ويحجُّون ويعتَمرون، ولكنَّ مقاصد هذه الأعمال العظيمة غائبة ضائعة، أو في أحسن الأحوال تجدها ضعيفة باهتة، والجهل بالمقاصد أو إهمالها قد يجعل الناس يأتون بالأعمال ويتقيدون بأشكالها ورسومها وألفاظها، ولكنهم قد ينتهكون مقاصدها أو يتصفون بنقيضها»^(١).

والحقُّ أن تدبر القرآن من شأنه أن يقود صاحبه إلى حقيقة من الأهمية بمكان فيما يتعلق بالعبادات والأحكام، وهي أن هذه الأحكام مشمولة بلفظ التقوى الذي يتردد كثيراً في القرآن، وأن التقوى ليست طقوساً مجردة، ولا رسوماً ظاهرية،

(١) أحمد الريسوني، الفكر المقاصدي (ص ١٣١).

ولا شكلاً دون حقيقة، ولا مظهرًا دون جوهر، ولا جسدًا دون روح، بل « التقوى لها شكل وصورة، ولها جوهر وحقيقة، فأما شكلها فالمحافظة على رسوم العبادات وطقوسها الظاهرة، والاهتمام بأعمال الجوارح وطاعات الأبدان، لا بأعمال القلوب وطاعات القلوب، والحرص على تجنب معاصي الجوارح دون الحذر من الوقوع في معاصي القلوب، والعناية بالآداب الظاهرة التي تراها أعين الناس، دون الآداب الباطنة التي قلما يلتفتون إليها، فأما جوهر التقوى وحقيقتها فتنجلي في (القلب) الذي هو موضع نظر الله تعالى، والذي هو أساس النجاة في الآخرة»^(١).

ومن مستتبعات هذه الحقيقة أن نية العبد وقصده ينبغي أن يكون لهما الاعتبار الأول في قيمة عمل العبد وصحته، ومن شأن هذه الحقيقة أن تكفّ غرور المرء بظاهر عمله، وأن تحمله على تجريده من شوائب النيات، وزائف الاعتقادات. فإن « من مقاصد آيات الأحكام امتثال ظاهر المكلف وباطنه عملاً وقصدًا، فمن لم يحقق قصده وباطنه بالعمل الظاهر كان كاذبًا، ومن أوهم بظاهرة امتثال الأمر ولم يكن قصده كذلك لم يقبل منه »^(٢).

وهكذا، فإن العقيدة لا تغني عن العمل، ولا يغني ظاهر

(١) يوسف القرضاوي، الصحو الإسلامية من المراهقة إلى الرشد (ص ٢٤).

(٢) مدحت ممدوح القصر اوي، مقاصد القرآن الكبرى (ص ١١١).

العمل ما لم يلتفت إلى مقاصد التشريعات التي تمثل روحها، ولا يغني عمل الجوارح عن عمل القلب؛ لأن السير سير القلب، ونية العبد هي محل الاعتبار.

٣ - التدبّر المقاصدي ومركزية الأخلاق:

أ - الأخلاق غاية الدين:

الأخلاق في القرآن تتخلّل كل التوجيهات، وتمتزج بأحكام العقيدة والشريعة معاً؛ ولذلك فهي تشمل كل حياة الإنسان، في مختلف أبعادها، ولا غرو أن جعلها الرسول ﷺ عنوان رسالته، ومقصد بعثته، وغاية دعوته. فالأخلاق في مفهومها الشامل هي الدين نفسه. وقد صدّق مَنْ قال: «إنما الدين الخلق، وإن من فاتك في الخلق فاتك في الدين»، ولذلك يجد المتدبّر لكتاب الله امتزاجاً واضحاً بين الحكم الشرعي والجانب الخلقي، وهو امتزاج لا يكاد يبقى معه معنى لعبادة أو طاعة أو حكم شرعي مجرد عن الخلق.

ويذكر الشيخ سليمان الأشقر ثلاثة وجوه لهيمنة الجانب الأخلاقي في الشريعة الإسلامية:

* الوجه الأول: أن الشريعة الإسلامية توجب مراعاة مقتضى الأخلاق في جميع الحالات والعلاقات الدولية والفردية، وفي جميع الظروف والأحوال...

* الوجه الثاني: أن مراعاة الأخلاق في الإسلام واجبة في

الغاية والوسيلة.

* الوجه الثالث: أن الأخلاق في الإسلام موصولة بتقوى الله ومراقبته، وهذا الارتباط الشديد بين القانون والأخلاق في الشريعة الإسلامية أكسبها جلالاً تغبط عليه... وخلّصها من كثير من قسوة القواعد القانونية المجردة^(١).

وإذا كانت الأخلاق في جانبها العملي مرتبطة بالقوانين الشرعية، ومتّصلة بها ومهيمنة عليها، فإنها تستمدّ قيمتها الإلزامية من مبدأ التوحيد ذاته، فالله تعالى الخالق الرازق، هو الذي شرع هذه الأخلاق وغرسها في فطرة الإنسان قبل بدء الخليقة، والفطرة التي لا تجد مناصاً من الإيمان بأن خالقاً لهذا الكون لم يخلقه عبثاً، هي الفطرة التي لا تملك إلا أن تدعن لما تدعو إليه أخلاق الإسلام من مكارم الأخلاق، وما تنهى عنه من سيئها.

ب - الأخلاق عنوان التوحيد:

يجد المتدبّر لكلام الله ربطاً بين الأخلاق والتوحيد؛ حيث « تُصدّر بالتوحيد، أو تُصدّر وتختتم به، أو يُضمّن من بينها، من جانب أن التوحيد قيمة خلقية، وأن الشرك أعظم القبائح، أو يذكر مساوئ الأخلاق مع الشرك، فيربط الخلل في التوحيد بالخلل الخلقي »^(٢).

(١) عمر سليمان الأشقر، خصائص الشريعة الإسلامية (ص ٩٤).

(٢) مدحت ممدوح القصر اوي، مقاصد القرآن الكبرى (ص ٥٥).

الأخلاق في القرآن ليست كملاً للإيمان فحسب، بل هي جزء من حقيقته ذاتها، فإذا كانت مما بين العبد وربّه فهي إخلاص له، وإنابة إليه، وتوكل عليه، ورجاء في رحمته، وخشية من عذابه، وحياء منه، وشكر على نعمائه، وصبر على بلائه، ورضاً بقضائه، ومحبة له، وأنس به... وإيثارٌ للآخرة على الدنيا، وإذا كانت مما بين العبد والعبد فهي صدق، وأمانة، وسخاء، وشجاعة، وتواضع، ووفاء، وحياء، وعفة، وحلم، وصبر، وعدل، وإحسان، ورحمة، وغيره على المحرمات، وبرّ للوالدين، وصلة للأرحام، وإكرامٌ للجار، وتسامح مع المخالف، وإيثار، وتعاون على البرّ والتقوى، وتوقيرٌ للكبير ورحمةٌ بالصغير، ورعايةٌ لليتيم^(١).

وقد تجلّى الخلق القرآني حيّاً يراه الناس ويعايشونه في حياة النبي ﷺ؛ حيث تمثل أخلاق القرآن وامتثلها، فكان - بحق - قرآناً يمشي، وهو الوصف الذي وصفت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ، حين سألتها سائل عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت أن خلق نبي الله كان القرآن^(٢).

(١) يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن؟ (ص ٦٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، أن سعد بن هشام بن عامر قال: «قُلْتُ: يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: أَلَسْتُ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ».

كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل برقم (٧٤٦)، (٣٧٤ - ٣٧٦)، وهو في مسند الإمام أحمد برقم (٢٥٨١٣، ٢٥٣٠٢، ٢٤٦٠١).

فليست أخلاق القرآن تعاليم نظرية مثالية بعيدة عن التمثّل والتطبيق في واقع البشر، فهذا هو قد تجلّت في حياة النبي ﷺ حتى وُصف بالخلق العظيم، فكان - بحق - قدوة المقتدين، وأسوة المتأسّين.

ثم إن الخُلُق يوثق روابط الأخوة، فلا تسمح العقيدة الإسلامية بالنيل من كرامة المؤمن؛ لأن المؤمنين جميعاً جسم واحد، ولا يصحّ لمؤمن عاقل أن يصوّب السهم إلى نفسه أو يحطّم بناءه بيده.



ثالثاً:

مقاصد القرآن من التدبُّر إلى التدبير

١ - مقاصد القرآن وسنن العمران:

إن التدبر - باعتباره إعمالاً للنظر والفكر في آيات القرآن الكريم لتعميق الفهم وإدراك أبعاد الدلالة استرشاداً بمقاصد القرآن وغاياته الكبرى - لا يمكن أن يكون غاية يقف عندها المتدبر، وإنما تكون التلاوة والتدبر أول خطوة نحو العمل وتعمير الكون، وتوجيه حركة الحياة بما يحقق رسالة الاستخلاف في الأرض، وبذلك يتصل التدبر بالتدبير.

ومن هذا المنظور يمكن إجمال المقاصد الكبرى للقرآن في محورين:

* محور اعتقادي يتعلق بتصحيح التصور بشأن الخلق والوجود والحياة والمصير.

* ومحور عملي يتعلق بتحقيق مهمة الاستخلاف والعمران والإصلاح في الأرض، وفق الضوابط والتصورات التي ينطوي عليها المحور الأول (الاعتقادي).

وقد اجتهد بعض المفكرين المعاصرين في إبراز هذا الجانب من خلال إعادة النظر في أقسام مقاصد القرآن؛

ليكون مقصد العمران من بين المقاصد الأساسية للقرآن الكريم، ويعد طه جابر العلواني رحمته الله أبرز هؤلاء المفكرين الذين سَعَوْا إلى إظهار وجوب الاهتمام بهذا المقصد الهام وإفراده بالبحث والتوسيع والإثراء. يقول رحمته الله: «لو استقرأنا آيات الكتاب الحكيم كلها وأخذناها من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، وقمنا بدراستها وتحليلها عدة مرات محاولين حصر المقاصد والقيم العليا الحاكمة التي جاء القرآن المجيد من أجل إرساء دعائمها فما الذي نجد؟ نجدها ثلاثة في حدود ما وصلنا إليه:

- القيمة العليا الأولى: التوحيد.

- القيمة العليا الثانية: التزكية.

- القيمة العليا الثالثة: العمران ^(١).

وبهذا التقسيم المحدث تمكّن العلواني من تجديد النظرة التقليدية للمقاصد التي سادت منذ القديم، وانصبت جهود العلماء فيها على البحث عن حِكم التشريع وغاياته لإثبات أن كل التشريعات ذات حِكم ومقاصد وغايات، وأنها قائمة على حفظ المصالح ودرء المفاسد؛ إذ الواقع المعاصر يتطلب اهتمامًا خاصًا بمقاصد القرآن العليا القادرة على توليد أحكام للمستجدات، والراهن من القضايا والمشكلات،

(١) طه جابر العلواني، أفلا يتدبرون القرآن.. معالم في التدبر والتدبير (ص ٦٠، ٦٢).

والمستحدث من النوازل والتحديثات.

ولا شك أن مقصد العمران هو من أهم الإضافات التي قدّمها العلواني في موضوع مقاصد القرآن، لا سيما وأنه انطلق من موضوع التدبّر ليبين أن هناك تلازمًا تامًّا بين تدبر القرآن وتدبير العمران، فالتدبر يؤسّس للعمران ضوابطه ومحدّداته، فيكون هذا العمران من نواتج التدبر ومخرجاته.

والم تأمل آيات القرآن يجدها تدعو بوضوح إلى عمارة الأرض وفق منهج الله، والاستفادة مما فيها من نبات وحيوان وشمس وقمر ونجوم سُخِّرَتْ كُلُّهَا للإنسان ليقوم بما عُهِدَ إليه من رسالة الاستخلاف العظيمة التي اقترن فيها التشريف بالتكليف. ولا يمكن أن نتصور استخلافًا في الأرض من دون عمارة لها وأخذ بأسباب القوة والاستفادة مما سخر الله فيها من مخلوقات. كل ما يشترطه القرآن أن يكون هذا السعي باسم الله، غير منفكٍّ عن شرعه، ولا متمرّد على أمره.

وإن من دلائل كون العمران من مقاصد القرآن أن دعوة الرسل إلى الإيمان والتوحيد وعبادة الله تقتنن بالدعوة إلى الإصلاح في الأرض والنهي عن الفساد. ومن هنا فإن مفهوم العمران في القرآن لا ينفصل عن معنى العبودية والخضوع لأمر الله والسعي في أداء أمانة الاستخلاف، فهو عمران رسالي ينافي العلوّ والاستكبار والطغيان، ولا قيمة له في ميزان القرآن إذا قُصِدَ لذاته، أو كانت الحياة الدنيا مبلغه

ومنتهاه، أو جُعل مطية للطغيان والظلم والإفساد في الأرض.
إن المتدبّر لكتاب الله ليجد فيه ما شاء أن يجد من سنن
الله في الحضارات والعمران، وإن شطر القرآن لهو حديث
عن الأمم السالفة، وكيف ازدهرت حضارتها وكيف تراجعت
فَذَوَتْ أو بادت ودُمّرت، وبقيت آثارها شاهدة عليها ناطقة
بالعبر والعظات.

لقد ذهب أكثر العلماء والدارسين إلى أن القصص من
مقاصد القرآن الأساسية ومحاورة الكبرى، ونحن إذا نظرنا
إلى هذا المحور من زاوية العمران وجدنا أن القرآن الكريم
لم يقصّ علينا قصص الأولين إلاّ ليدلّنا على نماذج واقعية من
التاريخ البشري لأقوام عمروا الأرض وشادوا الحضارات.
ولكنهم فصلوا العمران عن مقتضيات الإيمان، فأتى الله
ببنائهم من القواعد، وكان عاقبة أمرهم أن تلاشى سلطانهم
واندثرت حضاراتهم وزال عمرانهم.

والمتدبّر للقرآن يجد أن الطغيان والفساد هما أعدى أعداء
الحضارة والعمران، سواء أكان هذا الفساد سياسياً كما في
قصة موسى وفرعون، أم كان فساداً اقتصادياً كما في قصة
شعيب مع قومه، أم كان فساداً أخلاقياً كما في قصة لوط
وقومه، أم كان طغياناً وإعراضاً عن الإيمان والإذعان للواحد
الديان، كما في قصة نوح وقومه. ففي جميع الحالات تكون
عاقبة الطغيان وما يرافقه من فساد دماراً يحل بالعمران،

وخروجًا من امتحان الخلافة بالخسران، يقول سيد قطب: «... وليس وراء الطغيان إلا الفساد؛ فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء، كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة، ويحوّل الحياة عن خطّها السليم النظيف المعمّر الباني، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال»^(١).

وفي مقابل هذه الصور نجد نماذج للقوة الحضارية التي لم يحملها ما بلغته من تحصيل لأسباب العمران على الظلم والطغيان، بل كانت شواهد حية على أن بإمكان البشر أن يجمعوا بين قوة العمران ورسوخ الإيمان.

من ذلك قصة نبي الله سليمان عليه السلام الذي بلغ ما بلغ من أسباب القوة والملك بما سخر الله له من قوى ومخلوقات، ولكنه سخر هذه القوة المادية في هداية الخلق إلى الحق، والقيام بواجب العدل والقسط. وقد بلغ من قوة العمران والحضارة أن ملكة سبأ لم تملك - وقد دخلت الصرح الممرّد وأبهرها ما وجدته عليه من بديع الصنع وعجيب الإتقان - إلا أن انضمت إلى موكب الإيمان، ولجأت إلى رحاب الإسلام. ولكن سليمان عليه السلام ومع هذا الملك العريض كان يقف بين يدي الله خاشعًا منيبًا متضرعًا داعيًا: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا

رَضْنَهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ [النمل: ١٩].

ومن النماذج القرآنية التي يجدها المتدبّر وقد جمعت بين قوة العمران ورسوخ الإيمان ذو القرنين الذي لم يسخر ما آتاه الله من قوة الأسباب والتمكين إلّا في إشاعة العدل ونصرة الضعفاء في عزة وتعفّف وإباء. وفي قصة السد التي ذكرت في سورة الكهف إشارة إلى ما يمكن للقوة الحضارية المسدّدة بتعاليم الوحي، العامر قلب صاحبها بالإنابة والتوكل أن تقود إليه من رَفْد ينصر الضعيف، وما تبديه من قوة تصد الباغي المتجبر. وذو القرنين بذلك يمثل « النموذج الطيب للحاكم الصالح، يمكّنه الله في الأرض، ويسر له الأسباب، فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً. ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه. إنما ينشر العدل في كل مكان يحلّ به، ويساعد المتخلفين، ويدراً عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يسرّها الله له في التعمير والإصلاح، ودفع العدوان وإحقاق الحق »^(١).

وهكذا فإن القرآن الكريم يحفل بالحديث عن الوقائع والنماذج التي ترسم أمام المتدبّر معالم واضحة للعمران

الرسالي الذي يجمع بين إقامة الحضارة والعمران والقيام بحق الرسالة والإيمان.

٢ - مقاصد القرآن ومشكلات الحضارة والإنسان:

إذا كان التدبُّر - وفق روح مقاصد القرآن - هو الخطوة الأولى والضرورية في الانتقال إلى مجال التدبير الحضاري على بصيرة. فإن واقع المسلمين اليوم ناطق بحاجتهم الماسّة إلى تمثُّل كل المعاني، واستثمار كل الأبعاد التي ينطوي عليها الكتاب العزيز للانطلاق به إلى الآفاق، ووصل ما انقطع من شهود حضاري بلغ بأجدادهم قمة القمم، وكانوا به يوماً سادة الأمم.

وبإمكان المتأمِّل أن يلحظ هذه المفارقة بين واقع المسلمين اليوم - وسيماء العجز والضعف وقلة الحيلة والهوان - وبين روح كتابهم، وكلُّها قوة وعزة وحجة ودعوة إلى التفكير في الخلق، وتأمل سير الأولين، والسير في الأرض وإعمال العقل وجميع القوى والمواهب في نصرته الحق ونشر الخير وجلب الصلاح. ولا شك أن هذا الواجب يتطلب الأخذ بأسباب القوة والتمكين واجتناب أسباب الضعف والفشل؛ حتى يمكن للأمة أن تحفظ كيانها لتتطلع بعد ذلك إلى نصرته المستضعفين، وهداية الحيارى التائهين.

وإذا كان القرآن الذي أقام به الأسلاف صرح الحضارة والعمران لقرون هو ذاته هذا القرآن الذي بين أيدينا، فما

الذي تبدّل حتى صار المسلمون إلى ما هم عليه من تقهقر في العمران وتصدّع في البنيان، وعجز في الأخذ بأسباب القوة والتمكين؟

ما من شك في أن هذا الضعف مردهُ إلى خلل في العلاقة مع القرآن الكريم، وقصور في فقه التدبّر والتدبير، وقد كان من نتائج هذا الخلل ما نشهده من تبعية وارتهان حضاري للآخر، ومن شلل في القدرات، ومن تعطل وتعطيل للطاقات، ومن تصدّع في الكيان النفسي والروحي للمسلم، ومن تقهقر مريع في المجالات المادية والطرائق التنظيمية والمنجزات العلمية. يقول طه جابر العلواني: «لا شك أن أزمات المسلمين وأمراضهم الكثيرة يرجع معظمها إلى هجر القرآن وإعراضهم عن تدبّره وعدم الاهتداء بآياته، والاستشفاء بأنواره، ونستطيع أن نشهد ذلك ونلمسه في كل ما تعانيه الأمة من فرقة وتدابّر وتنافر وذلة وصغار وانحرافات، وفساد وأزمات وأمراض»^(١).

وقد أثبتت وقائع التاريخ أن كل محاولة للنهوض الحضاري لا تتأسس على القرآن الكريم، ولا تستند بوضوح إلى روحه ومقاصده محكومة بالفشل؛ لأنها تضلّ حينئذ عن سر استنهاض قوى الأمة الكامنة، وروحها القابلة للانبعاث متى أدركتها شروطه.

وبالنظر إلى هذه المركزية التي للقرآن الكريم في

(١) طه جابر العلواني، أفلا يتدبرون القرآن (ص ١٤).

عملية النهوض الحضاري للأمة، فإن التدبُّر والتدبير يغدوان عملاً عميقاً الأغوار بعيد الآثار، فلا يكفي في تحقيق مقاصد التدبير بعض التأمّلات الفردية المعزولة البعيدة عن متطلبات المعركة الحضارية للأمة. وبذلك ندرك أن عملية التدبير إذا أريد لها أن تأخذ أبعادها الصحيحة الكاملة هي « في غاية الشعب والامتداد، وتحتاج إلى قدرات وإمكانات ومراكز بحوث، ودراسات ينهض بها أذكى الأذكاء من أبناء الأمة، لكي يصلوا إلى صياغة الإشكالات الكبرى، ويقاربوا القرآن بحسبها، ويتدبروا آياته ليكتشفوا حلوله ومعالجاته وسننه وقوانينه وهدايته، ومناهج وكيفيات تفعيلها في الواقع »^(١).

وهكذا فإن التدبُّر الصحيح لا يمكن إلا أن يهدي إلى التدبير الفعال من حيث هو تخطيط للخروج من الأزمات والمشكلات وتنظيم لشؤون الحياة، وسياسة لأحوال الأمة بما يحقق مقاصد القرآن وقيَمِهِ، ويجعل الأمة أقرب إلى القوة والعزة والتمكين، وأبعد عن الضعف والغثائية والعجز. ولا تقتصر فعالية التدبير - إذا أحسن استثماره - على معالجة مشكلات الأمة الإسلامية وأزماتها الحضارية، بل إنه هو زاد الإنسانية في التخلص من المشكلات المعاصرة التي تهدد البشرية ويستنفر العالم قواه من أجلها.

فالتفكك الأسري، وموجة الإباحية، والتلوث البيئي

(١) طه جابر العلواني، أفلا يتدبرون القرآن (ص ٨٩).

والحروب، وسباق التسلح، والأزمات الاقتصادية، والاختلال العظيم في توزيع الثروة، وظواهر القلق والتأزم النفسي، وحوادث الانتحار والإجرام وانتشار المخدرات، هي كلّها مشكلات وأزمات لم تُعدّ تخصّ قومًا دون آخرين، بل غدت أزماتٍ عالميةً عابرةً للحدود والقارات والقوميات؛ لأنّ الواقع الحداثي الغربي يكاد يعمُّ الأرض كلّها أو كاد. ولذلك فإنّ الأزمات والآفات التي أفرزها هذا الواقع تتطلب مصدرًا كونيًّا متجاوزًا للواقع الحداثي الغربي حتى يمكنه علاجها والحد من آثارها، لا سيما وقد ثبت أن أوهام الحلول التي أفرزتها الحضارة الغربية لم تكن إلّا « مسكّنات » مؤقتة يزول مفعولها بعد حين، ولكم تسببت بأضرار أشد، وجاءت نتيجتها بعكس مقصود أصحابها.

وبالنظر إلى أن النظريات الإصلاحية والمقاربات العلاجية التي نبتت في تربة الفكر الحداثي الغربي لم تتمكن من تقويم المسلك الذي قاد إليه هذا الفكر الحداثي، فلا بد من مصدر يكون متجاوزًا لهذا الفكر وأعمق منه حتى يقدر على معالجة مشكلاته. ولا يمكن أن يمارس هذه المهمة غير القرآن الكريم بقيّمه ومقاصده، فهو الوحيد المؤهل القادر على إصلاح هذا الوضع البئيس، وتجنب البشرية نكسة الواقع الحداثي الغربي بأفاته ومشكلاته^(١).

(١) ينظر: طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق (ص ١٣٢).

وكل هذا يعزّز الحاجة الملحة إلى منهج جديد في التعامل مع القرآن الكريم، يستلهم مقاصده ليفعل تدبره، ويستحضر تدبره ليسدد تدبيره. وهذا هو السبيل إلى «تثوير» القرآن، لا ليحلّ مشكلات الفرد ويلبّي حاجاته الروحية والنفسية فحسب - وذلك أمر مطلوب - بل ليقود مسيرة الأمة نحو الاستئناف الحضاري، وتجسيد النموذج الأمثل للعمران المهتدي بنور الإيمان، وهداية البشرية الحائرة إلى طريق الحق والخير والجمال.



رابعاً:

خلاصات وفوائد

* إن المتدبر ينبغي أن يجنح بمقتضى المنهج المقاصدي إلى الكلية في التدبر والتفسير، فيجمع التفسيرات الجزئية في معنى كلي، ويركز على التفسير الموضوعي مع التفسير الموضوعي، مع الاهتمام بتبيين الموضوع الذي تدور حوله السورة القرآنية؛ إذ السورة القرآنية متعاقبة الآيات والجمل حول موضوع كلي واحد. كما أن لآيات القرآن الكريم أعماقاً من الدلالة ومستويات تتفاوت حظوظ المتدبرين في الوصول إليها، بحسب أرصدتهم من العلم، وأنصبتهم من الفهم، ومواهبهم من الإدراك.

* والمنهج المقاصدي في التدبر يهيئ القارئ المتدبر للاقتراب من مقاصد الآيات والنصوص، ويجنبه الشطط في التفسير والتأويل، ويُعفيه من الوقوف عند ما لم يطلب منه البحث فيه من المبهمات. كما أن النظرة الشاملة للقرآن هي المنطلق الأساسي لفهم نصوصه وتدبرها، وتحقق هذه النظرة الشاملة بالالتفات إلى الأهداف الأساسية التي جاء القرآن ليرسيها، والمحاوَر الكبرى التي دارت حولها سوره وآياته.

* ومن ثمرات التدبر المقاصدي أنه يُكسِبُ صاحبه نظرة

متوازنةً إلى حقائق الدين، وما يتَّصل به من مجالات الحياة وفق منهج القرآن؛ بحيث يكون الاهتمام بالأمر على مقدار اهتمام القرآن بها؛ فما عني القرآن بذكره من المعاني والموضوعات وجعله في بؤرة اهتمامه وكرَّر الحديث عنه، يجب أن يأخذ من عناية المسلم واهتمامه المكان اللائق به في الفكر والشعور والسلوك.

* ومن شأن التدبُّر المقاصدي أن يقود إلى تجديد الإيمان وتناول قضايا العقيدة الإسلامية بما يوافق التصور الإسلامي الصحيح، ويحفظ للعقيدة حرارتها وتأثيرها في الأنفس والحياة. وينبغي أن يتجلى ذلك في تناول قضايا الإيمان والعقيدة والخطاب العقدي، بعيداً عن الطابع الكلامي الجدلي الغارق في النزعات الفلسفية والنزاعات المذهبية.

* وعلى المتدبِّر أن يعي أن الآخرة وما فيها من وعد ووعد هي ضرورة لإصلاح الدنيا ذاتها. إنها ليست حديثاً معزولاً عن الواقع والحياة وما فيهما من حركة، بل هي محور هذه الحياة والخيط الذي ينبغي أن ينتظم جميع شؤون البشر بصورة إيجابية تحفظ على الإنسان أمنه النفسي والمجتمعي.

* وإذا كانت الأحكام الشرعية بمفهومها العملي تمثل الشقَّ المقابل للعقائد فإنَّهما في الحقيقة كوجهي الورقة لا ينفصلان، فلا معنى للإيمان إذا لم يحمل صاحبه على التزام ما يقتضيه من واجبات وأحكام عملية؛ ولذلك نجد في

القرآن تلازمًا تامًّا بين العقيدة والشريعة، وارتباطًا شديدًا بين الإيمان والعمل الصالح.

* إن الإيمان كما يرد في القرآن ليس تصوّرًا ذهنيًّا معرفيًّا كتصورات الفلاسفة التي تبقى أفكارًا ذهنية ومفاهيم نظرية لا أثر لها في واقع الناس وحركة حياتهم، بل العقيدة الإسلامية كما يجدها المتدبر لكتاب الله ليس لها إلا أن تتحول إلى عمل، وليس لصاحبها إلا أن يسارع إلى امتثال مقتضياتها في حياته.

* ومن مظاهر الخلل في تمثّل المنهج المقاصدي أن بعض المسلمين يأتي بالعبادات، ولكنه يغفل عن الجانب المقاصدي لهذه العبادات ذاتها، فيكون عرضةً لأنواع من الشطط والانحراف كاعتقاده بأن أشكال العبادات ومظاهرها مغنية عن حقائقها وجواهرها.

* أما الأخلاق في القرآن فتتخلل كل التوجيهات وتمتزج بأحكام العقيدة والشريعة، وتشمل كل حياة الإنسان في مختلف الأبعاد. وإن المتدبّر لكتاب الله ليجد امتزاجًا واضحًا بين الحكم الشرعي والجانب الخلقي، وهو امتزاج لا يكاد يبقى معه معنى لعبادة أو طاعة أو حكم شرعي مجرد عن الخلق.

* وليس تصحيح التصورات النظرية بشأن العقائد والأحكام والأخلاق هو غاية التدبر والمتدبر، بل ينبغي أن

يكون التدبُّر طريقًا إلى التدبير، تعميرًا للكون، وتوجيهًا لحركة الحياة بما يحقق رسالة الاستخلاف في الأرض. والمتأمل لآيات القرآن يجدها تدعو بوضوح إلى عمارة الأرض وفق منهج الله، والاستفادة مما سَخَّرَ الله فيها للإنسان؛ ليقوم بحق ما عُهد إليه من رسالة، ويؤدي الذي عليه من استحقاقات الاستخلاف والأمانة.



الفصل الثالث

حقوق الإنسان من مقاصد القرآن

تَقْهِيْد

صدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ديسمبر ١٩٤٧م، وقد عُدَّ هذا الإعلان تطوُّرًا بارزًا في صياغة حقوق الإنسان في عالمنا المعاصر، ثم صدر العهد الدولي بشأن الحقوق المدنية والسياسية والعهد الدولي بشأن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٦ ديسمبر ١٩٦٦م^(١).

وقد سُبقت هذه الإعلانات العالمية بإعلانات أخرى خاصة في بعض الدول، كإعلان الاستقلال الأمريكي سنة ١٧٧٦م، وإعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي أصدرته الجمعية التأسيسية الفرنسية سنة ١٧٨٩م، ودستور الثورة الفرنسية سنة ١٧٩٣م^(٢).

وكان أهم ما نصَّت عليه هذه المواثيق من الحقوق « حقوق الإنسان الطبيعية مثل حقه في الحرية، وحقه في الأمن وعلى سيادة الشعب كمصدر للسلطات في المجتمع، وعلى سيادة القانون كمظهر لإرادة الأمة، وعلى المساواة بين جميع المواطنين أمام الشرائع

(١) محمد فتحي عثمان، حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانوني الغربي (ص ١٤).

(٢) سالم القمودي، الإسلام كمجاوز للحدثة ولما بعد الحدثة (ص ١٧٤).

والقوانين... إلخ»^(١).

وهكذا كان شعار حقوق الإنسان من بين أبرز الشعارات التي أفرزتها الحضارة الغربية الحديثة، لا سيّما بعد الثورة الفرنسية وما رافقها من أفكار واتجاهات عبّرت عنها بعد ذلك الحداثة الغربية والمفاهيم الأخرى التي تفرعت عنها.

ومن هنا حدث ذلك الالتباس الذي لاحظته بعض المفكرين بين تاريخ حقوق الإنسان الطويل والتاريخ الأوروبي (الخاص) لحقوق الإنسان في تصور الكثيرين^(٢). مع أن تصور حقوق الإنسان في العالم الغربي لا تاريخ له ولا وجود قبل قرنين أو ثلاثة^(٣).

كما أن هناك حقوقاً أخرى أغفلها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والاتفاقيات الصادرة عن منظمات الأمم المتحدة، وهي حقوق خاصة بثقافات وبيئات اجتماعية قد لا تُعتبر حقوقاً في ثقافات أخرى، وفي بيئات اجتماعية أخرى، وإذا كان الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والاتفاقيات الأخرى الصادرة من الأمم المتحدة اقتصر على حقوق الإنسان في مجتمعات أو بلدان دون غيرها، وفي مرجعيات ثقافية اجتماعية دون غيرها فإن ذلك يدعونا إلى إعادة النظر في مثل تلك الحقوق والاتفاقيات بما يكفل حقوق الآخرين،

(١، ٢) محمد عمارة، الإسلام وحقوق الإنسان (ص ١٤).

(٣) أبو الأعلى المودودي، الحكومة الإسلامية (ص ٣٣٧).

وحفظها وصيانتها وضمان تحققها، والتمتع بها في أي بيئة أو في أي مجتمع كان ولأي إنسان كان^(١).

ويغفل كثير من الناس عن مواطن القصور في التصور الغربي لحقوق الإنسان، مع أنه لا شيء يدعو إلى الحيرة من ذلك التناقض البين ما تدعو إليه الوثائق الغربية من حقوق الإنسان - على ما فيها من ثغرات وقصور - وبين ما يتكلم به الواقع من ظلم وإجحاف طال ويطال قسمًا غير هيّن من البشر. فهل نذكر حركة الاستعمار التي ذقت الشعوب المستعمرة بسببها الويلات؟ أم نذكر التمييز العنصري الذي طبع على جبين الغرب وصمة عار لا تُمحى؟ أم نذكر الحروب الكبرى التي رُجّ فيها بالشعوب التي لم تخترها ولم تتمنّها؟

هل نذكر الإبادة الوحشية التي تعرض لها عشرات الآلاف من السكان الأبرياء في مدينتي «هيروشيما» و«ناكازاكي» باليابان عندما فُجّرت فوق سكانهما القنبلة الذرية؟

هل نذكر حملات الإبادة في حق سكان أمريكا الأصليين؟ أم نستشهد بما جرى ويجري يوميًا في حق الشعب الفلسطيني احتلالًا وقتلًا وأسرًا وتهجيرًا وهدمًا واستيطانًا وتهديدًا؟

هل نذكر جشع الشركات التي بلغ بها أن تلقي المحاصيل الزراعية في البحر في الوقت الذي يموت فيه الناس جوعًا؟ إن هذه الشواهد - وهي غيض من فيض - لا يمكن

(١) سالم القمودي، الإسلام كمجاوز للحدثة ولما بعد الحدثة (ص ١٩٨).

أن تفسّر إلا بذلك الاختلال الرهيب في ميزان الغرب بين القوة والأخلاق، حين احتفى بالقوة وغُيِّبَت الأخلاق، حين استعُيِضَ بحق القوة عن قوة الحق...

هذا في الجانب الواقعي العملي، أما لو تحدثنا عن الجانب النظري فإن الفلسفة الغربية لحقوق الإنسان لا تخلو من آفات خطيرة تهدّد تلك المنظومة التي تبدو متماسكة ومتكاملة.

ويمكن أن نجمل هذه الآفات في أربعة عناصر:

* أولها: أن هذه المنظومة هي نتاج رؤية محددة وثقافة ذات ملاسبات خاصة، ونتاج فلسفة غربية ذات بُعد واحد هو البعد المادّي المفصول عن الأبعاد الروحية والدينية والأخلاقية.

* وثانيها: هو ما يظهر لكل ذي بصيرة من اضطراب في الرؤية الفلسفية الغربية إلى الإنسان ذاته؛ حيث انتقلت تلك الرؤية من التبجيل المفرط إلى ضده، وانتقلت من النزعة الإنسانية المحتفية بالإنسان (ذي المكانة الممتازة في هذا العالم) إلى نزعات معارضة تماماً للنزعة الإنسانية، مبشّرة بموت الإنسان وإلغاء مفهومه، لا سيما مع انتشار الاتجاهات العنيفة والعدمية والفوضوية^(١).

* وثالثها: هو ذلك الالتباس في الفكر الغربي وواقعه بين حدود الحق والواجب، بين حق الفرد وحق غيره، بين

(١) سالم القمودي، الإسلام كمجاوز للحدّات ولما بعد الحدّات (ص ١٤١).

الحقوق الفردية والحقوق الجماعية، فأصبحنا نجد مَنْ يدافع باسم حقوق الإنسان عن المجرم الذي لا يتوانى في إبادة غيره، ناسين أو متناسين أنهم بدفاعهم عنه ينتهكون حقوق الجماعة في الأمن والحياة، فضلاً عن الحقوق الأخرى.

*** ورابعها:** غياب الالتزام والردع الذي يصون حقوق الناس ويحصنها عن أن تُنتهك، حتى إن ما جُعل من قوانين رادعة يخضع تفعيله في الغالب إلى الحسابات والمصالح أكثر من خضوعه إلى منطق الحق والعدل. وسرى أن هذه الآفات التي تطبع التصور الغربي لحقوق الإنسان وتهدد منظومتها لا وجود لها في المنظومة الإسلامية لهذه الحقوق، وسيتجلى هذا الأمر من خلال الموضوعات الثلاثة الآتية التي تتناول على الترتيب: أسس حقوق الإنسان، ومجالاتها، وضماناتها.



أولاً:

مقاصد القرآن وأسس حقوق الإنسان

تقوم حقوق الإنسان وفق المنظور القرآني على مجموعة من الأسس هي بمثابة الركائز التي توطّد أركان هذه الحقوق وتؤطرّها، وأهم هذه الأسس:

- التكريم. - الحرية. - المساواة.

١ - تكريم الإنسان:

إن الحديث عن حقوق الإنسان ضمن أي فكر أو فلسفة أو اتجاه لا يمكن أن ينفصل بحال عن الرؤية الشاملة والموقف العام في ذلك الفكر أو تلك الفلسفة من قضايا الوجود الكبرى، والأسئلة الخالدة التي شغلت بال الإنسان، مما يتعلق بحقيقة هذا الوجود وخالقه، وغاية هذه الحياة، ومصير الإنسان بعدها، ورسالته في هذه الحياة.

فأما من أصاب قبساً من نور الوحي فهو مهتدٌ بهديه، لا يخطئ بشأن تلك الأسئلة ذات اليمين وذات الشمال؛ إذ كفاه الوحي مؤونة ذلك، وأما من حُرِم نور الوحي فلا يكاد يعرف إلى الحق في ذلك سبيلاً.

وبالنظر إلى هذه الحقيقة فإننا نستهلّ حديثنا عن حقوق الإنسان في ضوء مقاصد القرآن ببيان الأساس الأول لهذه

الحقوق وهو التكريم.

فالناظر في القرآن يجد أن هذه الحياة وهذا الكون وما فيه ما جُعلا إلا ليكون الإنسان فيهما مكرماً ومشرفاً ومكلفاً، ولعل أنسب ما يُستدل به على هذا من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقد قصر بعضُ المفسرين حديثهم عن التكريم الوارد في الآية على معناه المادي، فذهبوا إلى أن تكريم الله لبني آدم يتجلى في خلقه لهم على أكمل الهيئات وأحسنها، وجعله الإنسان يمشي قائماً منتصباً على رجلين ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفيه^(١).

وهذا بُعدٌ واحد فحسب من الأبعاد المختلفة للتكريم الوارد في الآية؛ لأن الدلائل المادية للتكريم هي عنوان ومظهرٌ لتكريم أهم وأخطر، هو سماوية النسب، وقداسة الروح. وهذا النسب السماوي هو الذي رُشح الإنسان ليكون خليفة عن الله في أرضه، وهو الذي جعل الملائكة وصنوف المخلوقات الأخرى تعنوله وتعترف بفضله.

وعلى تقادُم العهد بالخلق، لم يوجد في هذا الكون من انبرى من المخلوقين لينازع الإنسان السيادة والقيادة

(١) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (ص ٥٩٤).

إلا إنسان مثله، ولم يوجد مخلوق غير الإنسان رُزق هذه المَلَكات التي مَكَّنَّته من أن يسخر ما في الكون تسخيرًا بعد تسخير، وأن يجعل حياته - في شَقِّها المادي - متجددة لا تكاد تثبت على حال، ولا يأتي على الإنسان منها طور إلا وله فيه فتوحات واستكشافات، بهداية الله له، وتشريفه إياه. وبالنظر إلى أن الكون وما فيه مسخر للإنسان، فإن علاقة الإنسان بالكون والأحياء والجمادات هي علاقات أساسها المحبة والسلام، والتعاون والرفق، تتأسس من خلالها قواعد التعامل مع الكون في الحضارة الإسلامية بعيدًا عما آلت إليه حضارات أخرى من اعتزال عنه، أو ارتهان له، أو صراع عدائي معه^(١).

وعلى هذا فإن التصور القرآني لحقوق الإنسان يتأسس على هذا التكريم الذي منَّ الله به على الإنسان وهذا التشريف الذي لم ينله من المخلوقين سواه، وعظمة شأنه التي بَوَّأته مكان القيادة والريادة؛ ليقوم بأعباء أمانة التكليف دون غيره.

وهكذا فإن كل تصوُّر أو تشريع أو ممارسة لحقوق الإنسان لا بد أن ينطلق من أصل التكريم والاجتباء.

٢ - حرّية الإنسان:

أما الإطار العام الثاني الذي يحكم نظام حقوق الإنسان

(١) عبد النور بزا، مصالح الإنسان.. مقارنة مقاصدية (ص ٣٦١، ٣٦٢).

وفق مقاصد القرآن فهو مبدأ الحرية؛ حرية الإنسان في اختيار مسالكه ومواقفه بما يترتب عليها من نتائج في حياته ومعاده، وبما لا يضرُّ حقوق الآخرين من الأفراد والجماعات.

« الحرية الإنسانية - بالمعنى الفردي والجماعي والاجتماعي - في عرف الإسلام واحدة من أهم الضرورات... والإسلام يرى في الحرية الشيء الذي يحقق معنى الحياة للإنسان .. فيها حياته الحقيقية، وبفقدائها يموت، حتى ولو عاش يأكل ويشرب ويسعى في الأرض كما هو حال الدوابِّ والأنعام^(١) ».

وحرية الإنسان مرتبطة أشد الارتباط بمبدأ التكريم الذي امتاز به عن سائر المخلوقات والموجودات، فإذا كانت كل الموجودات الكونية خلقت مسوقة إلى مصائرهما على سبيل الحتم، فإن الإنسان خُلِق بإرادة حرة يختار بها مصيره.

وهذا هو معنى الأمانة التي حملها الإنسان دون كل الموجودات بناء على إرادته الحرّة التي كان بها إنساناً، فهي إذن عنصر أساسي من إنسانيته، وحينما تُنتهك حرية الإنسان بأن تُلغى بأي وجه من وجوه الإلغاء فإن ذلك يعتبر استنقاصاً من إنسانيته، وهدرًا لقدرته على أداء مهمته التي من أجلها خُلِق، خلافةً في الأرض، وتعميراً لها^(٢).

(١) محمد عمارة، الإسلام وحقوق الإنسان (ص ١٧).

(٢) عبد المجيد النجار، مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة (ص ١٠٤).

إن الاسترقاق هو أبرز مظهر لسلب حرية الإنسان، فلا غرو أن شرع الإسلام من الأحكام ما تدرّج به نحو إلغاء العبودية واستعادة الحرية الإنسانية، حتى إن بعض العلماء عدّ حفظ الحرية مقصداً شرعياً من المقاصد العامة للشريعة الإسلامية. وإذا كانت حرية الإنسان من الأهمية بحيث شملت حرية اختيار الدين نفسه وهو رأس أمر الشريعة؛ حيث جاءت الآيات الصريحة ببيان عدم الإكراه فيه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فما بالك بما هو دونه خطراً، وأقل أثراً؟

وقد تحدّث بعض العلماء عن أنواع الحرية التي كفلتها شريعة الإسلام للإنسان، وتفاوت تصنيفهم لها.

ومن أهم أنواع الحرية التي ذكروها:

- * الحرية الشخصية وما يتعلق بذات الإنسان ومسكنه.
 - * الحرية المدنية وتشمل الحرية الفكرية والدينية.
 - * الحرية السياسية والاشتراك في إدارة شؤون البلاد.
 - * حرية الأمم والشعوب في حكم نفسها بنفسها^(١).
- وهكذا فإن الحرية مبدأ عام وإطار شامل وأساس متين لجميع الحقوق الإنسانية التي كفلتها شريعة الإسلام.

(١) ينظر: وهبة الزحيلي، العالم الإسلامي في مواجهة التحديات الغربية (ص ٦٤).

٣ - المساواة والعدل بين الناس:

لو قلنا: إن العدل والمساواة هما أساس حقوق الإنسان لما جانبنا الصواب، ذلك أن كل خلل في قضية الحقوق إنما ينشأ - غالباً - إما من تمييز بين الناس بغير وجه حق، وإما عن غمط الناس حقوقهم التي استوجبتها لهم إنسانيتهم، وكفلتها لهم الشرائع والقوانين.

والناس في منظور القرآن وشريعة الإسلام متساوون بأصل الخلقة، فلا مجال لمفاضلة بين البشر على أساس العرق أو الجنس أو الموطن أو المال أو الجاه، فذلك ديدن الجاهليات عبر التاريخ.

ويعود القرآن الكريم بأذهان البشر ومداركهم إلى أصلهم الأول ليدلل بطريقة مباشرة لا تقبل الجدل ولا المماحكة على أنهم إخوة متساوون ولِدُوا مِنْ أَبٍ وَاحِدٍ وَأُمٍّ وَاحِدَةٍ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فلا تفاضل بينهم إلا بما كسبت أيديهم باختيارهم وقرارهم.

وقد قصَّ علينا القرآن ما صنع فرعون حين علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، واستضعف منهم طائفة يذبح أبناءها ويستحيي نساءها، فكان مثلاً سيئاً للتمييز العنصري الظالم بين الناس، ولأمر ما كانت قصة طغيانه وإهلاكه أكثر القصص ذكراً في القرآن.

العدل مقصد عامٌّ من مقاصد القرآن ، ومن ألزم خصائص شريعة الإسلام، وبالنظر إلى خطورته وآثاره لم يُترك لأهواء البشر وأمزجتهم، بل شُرِّعت الأحكام التي تنظم شؤون الناس على أساس العدل والقسط. وأُهيّب بالحاكم والقاضي أن يتحرَّى العدل والتسوية بين المتقاضين، فوُعد بالشواب الجزيل إن هو اجتهد وعدل، وأُوعد بالعقاب الشديد إن هو مَالَ وجارَ، ومن الآيات الصريحة في هذا قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُوتًا قَوْمِينَ بِالْإِقْصَٰطِ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وينبه القرآن على قضية على درجة كبيرة من الخطورة، وهي الانجرار وراء مشاعر البغض والكراهية التي قد تحمل على التفريط في مبدأ العدل والإنصاف، فيقول تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨]، فالعدل مبدأ لا يخضع للمشاعر ولا للميول ولا للعواطف، وإنما هو قيمة ينبغي أن تجرّد من جميع هذه العوامل.

ولذلك جعل رشيد رضا من بين مقاصد القرآن المساواة بين الخاضعين لأحكام الإسلام في الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والملك والسوقة، والغني والفقير، والقوي والضعيف^(١).

(١) محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي (ص ٢٥٩).

ثانياً:

مقاصد القرآن ومجالات حقوق الإنسان

تتعدد حقوق الإنسان وتوزع على مجالات عديدة أهمها المجال الفكري والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وقبل أن نشرع في استعراض هذه المجالات نريد أن نبدأ الحديث بأعظم هذه الحقوق على الإطلاق وهو حق الحياة.

الحياة بوصفها بثاً للروح في الجسد وإيجاداً بعد العدم منحة عظيمة، هي محل التكريم والتشريف، وهي بعد ذلك مناط الأمر والتكليف، وعلى هذا كان الحفاظ على هذه الحياة من أعظم الحقوق وأجل الواجبات.

وقد ذكرت في القرآن الكريم أول حادثة أزهقت فيها روح إنسان ظلماً وعدواناً في قصة ابني آدم، وقرن فيها قتل النفس بالوعيد الشديد حين عُدَّ قتلاً للناس جميعاً. كما اعتبرت حماية روح أي إنسان حماية لأرواح النوع الإنساني بأسره، وجعل حفظ النفس في الشريعة من أعظم المقاصد، بل هو على رأس جميع المقاصد الأخرى، حتى إنه يتقدم على كل مقصد آخر إذا تعارض معه، ولو كان مقصد حفظ الدين نفسه.

وهكذا « جاءت الشريعة الإسلامية تأمر بكل ما فيه للإنسان بقاء ونماء وقوة، وتنهى عن كل ما هو خلاف ذلك مما فيه وهن أو تهلكة، فكان توفير أسباب البقاء والنماء،

والحيلولة دون أسباب الوهن والفناء مسلكين أساسيين من مسالك الحفظ المادي للنفس»^(١).

وبالنظر إلى ما هو واقع أو محتمل الوقوع في أي زمان ومكان من اعتداء الناس بعضهم على بعض، بالقتل وإزهاق الأرواح، شرع القصاص حفاظاً على حق الحياة، وردعاً لمن قد تسوّل له نفسه الاعتداء على هذا الحق. هذا القصاص قد يصل إلى حد قتل القاتل المتعمّد، وفي ذلك صيانة للنفس الإنسانية أن يُهدَر حقّها في الحياة، ومنعاً لانتشار هذه الجريمة العظيمة، وترسيخاً للأمن بين البشر، وهذا بعض من معنى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]. ف «حق الحياة في شريعة الإسلام حق مطلق لكل إنسان، صغير وكبير، رجل وامرأة، عالم وجاهل، صديق وعدو، قريب وبعيد، حتى الجنين له حق في الحياة»^(٢).

ولذلك كانت كثير من أحكام الشريعة دائرة على استمرار الوجود الإنساني، وحفظ الحياة، كالأحكام المتعلقة بالزواج والنفقة والرضاع والحضانة والوقاية والتغذية، ودفع كل ما من شأنه أن يضعف النفس أو يهلكها من مرض أو غذاء أو اعتداء.

١ - الحقوق الفكرية والعقلية :

إن الحرية الفكرية والعقلية من أخص خصائص مقاصد

(١) عبد المجيد النجار، مقاصد الشريعة (ص ١١٦).

(٢) وهبة الزحيلي، العالم الإسلامي في مواجهة التحديات الغربية (ص ٥٣).

القرآن، ذلك أن من مقومات التكريم والتشريف وما يقترن بهما من تكليف، ما امتاز به الإنسان من حرية الاختيار في مقابل ما هي عليه سائر المخلوقات والجمادات من جبر واضطرار. وهذا هو سرُّ أن حَفَلَ القرآن بالدعوة إلى التفكير والتدبر والنظر والتعقل. يقول الدكتور محمد عمارة: « النهوض بحقوق فرائض التفكير والتدبر والنظر والتعقل والتفقه هو الخاصية الإنسانية اللائقة بالإنسان المؤمن، وبغيرها لا فلاح له في الدنيا، ولا نجاة له من النار في الآخرة، بل ولا مكان له في الدائرة الإنسانية؛ لأنه بنكوصه عن النهوض بهذه الفريضة والضرورة الواجبة إنما ينتقل إلى دائرة مَنْ هم أضل من الأنعام»^(١).

إن العقائد والأفكار لا تُعْتَنَق في شريعة الإسلام بالإكراه عليها من قبل جهة مستبدة تحمل الناس على ما ترى، وإنما هي قناعات يهتدي إليها الإنسان بعقله وفطرته وما يساق إليه من أخبار الوحي، وما يمثل أمامه من دلائل وبراهين في مناخ من الحرية الفكرية والاختيار الحر.

ولذلك جاء الحكم قاطعاً بهذا في القرآن الكريم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فليست الحقائق بحاجة إلى أن يكره عليها الناس إكراهاً، ولكن الناس بحاجة إلى أن تبلغهم ولا يُحال بينها وبينهم، فإذا بلغتهم

(١) محمد عمارة، الإسلام وحقوق الإنسان (ص ٢٥).

فالأمر لهم بعد ذلك: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

الحرية العقلية ركن ركين في الدعوة إلى الله .. بل هي ركن في صحة العمل الإنساني ليستحق الثواب أو العقاب... إذ الإكراه لا يصنع العقائد، إنه على العكس ينفر منها ويسيء بها الظنون، وطبائع الأشياء ترسم للعقائد طريقاً يبدأ حتماً من الحرية العقلية المطلقة^(١).

وفي تعاليم القرآن وأحكام الشريعة - لو تأملنا - كثير من المبادئ التي تدعم الحرية العقلية كالدعوة إلى التحرر من قيود العادات والتقاليد الفاسدة، ومناهضة الاستبداد الفكري، ومداغة الهوى المضل عن الحق، والتجرد عن العواطف والخرافات والأوهام، والدعوة إلى العلم والنظر، بعيداً عن إكراهات الاستبداد، وأغلال الجهل وأوهام الخرافة والدجل. ولا شك أن العلم هو أهم روافد الحرية الفكرية، إنه فرعٌ باسق من شجرة التكريم الوارفة، ذلك أن ملكة التعلم التي وهبها الإنسان رشحته إلى مهمة توقفت إزاءها الملائكة، وذلك في قصة آدم وتعليمه الأسماء، وما حظي به من سجود الملائكة له بعد أن أظهر المقدرة على التعلم وتسمية الأسماء. وإذا كان الناس متساوين بأصل الخلقة، فإن حظوظهم من العلم بعد ذلك تتفاوت بينهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي

(١) محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي (ص ٩٢، ٩٣).

الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [الزمر: ٩]، فلا شيء كالعلم تحريراً للعقل، وإرشاداً للفكر، وتحقيقاً لكرامة الإنسان.

إن حفظ العقل هو أحد مقاصد الشريعة، ولكن هذا الحفظ يتجاوز الفهم الساذج للحفظ فهو « لا يقتصر على منع الخمر والمسكرات والمخدرات والمفترات وغيرها من المؤثرات المادية فقط، فكم من عقل لم يعرف خمراً ولم ير مسكراً ولم يتناول مخدرًا ولا مفترًا، ولكن أسكره الجهل والخمول، وخدّره التعطيل والتقليد، وشوّش عليه التغريب والاستلاب، وعطّله الاستبداد وقمع الحريات »^(١).

ومن هنا فإن « المحافظة على مصلحة العقل تبقى ناقصة ما لم يحفظ من آفة الجهل وضرر الأمية وقلة المعرفة بمختلف العلوم النافعة، ويُحمى من الضرر بمختلف أنواعه »^(٢).

ولا يحتاج الناظر في القرآن إلى كثير عناء ليستنتج أنه كتاب مجّد العلم، وبنى دعوته على الفكر والتفكير، وأسّس حججه وبراهينه على العقل والتدبر، دعا إلى العلم وحثّ عليه، وذمّ الجهل وزجر عنه، ورفع درجة العلماء، وفصلهم على غيرهم درجات.

٢ - الحقوق الاجتماعية:

صون كرامة الفرد ضمن المجتمع، وضمان حقوقه

(١) عبد النور يزاء، مصالح الإنسان (ص ٢٨٠).

(٢) المرجع نفسه (ص ٢٦٧).

المتعلقة بحياته وخصوصياته بدءًا بنفسه ومرورًا بأسرته وقربته وانتهاءً بجماعته وقومه، هو من الحقوق الأساسية التي نزل بها القرآن، وضبطتها شريعة الإسلام، وعلى أساس من مبدأ المساواة الذي أرساه الإسلام ساوى بين طبقات المجتمع، وكفل حقوق الفئات الضعيفة كالنساء والأطفال والمسنين والمرضى، والأسرى والجرحى، ومنع الاضطهاد والاستبداد.

وسنركز حديثنا على ثلاثة عناصر متصلة بالحقوق الاجتماعية هي:

- محاربة الطبقية. - تحرير الرق.

- صون كرامة المرأة.

أ - محاربة الطبقية:

تاريخ البشر مليء بالشواهد على طبقية فظيعة سادت عهودًا وعهودًا، وعانى البشر منها الويلات، فعلى سبيل المثال كان أفراد طبقة (شودر) من المنبوذين في الهند أخطأ - بنص القانون - من البهائم وأذلَّ من الكلاب؛ حيث يصرِّح القانون بأن من سعادة (شودر) أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك، وليس لهم أن يقتنوا مالا أو يدخروا كنزًا فإن ذلك يؤذي البراهمة... وكفارة قتل الكلب والقطة والصفدعة والوزغ والغراب

والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء^(١).

هذه صورة من صور الفظاعة التي بلغها نظام الطبقات، حتى غدا تشريعاً بنص القانون، لم يكتف بالاستعباد والرق، بل جعل طبقة بعينها في مرتبة أحط من الحيوان.

أما شريعة الإسلام فلا طبقية فيها، الناس في كنفها سواسية في الحقوق والحظوظ كأسنان المشط، الشرف فيها لا يورث، والثروة توزع بين الورثة بالعدل ولا تتكدس، والتشريع ليس ملكاً لطبقة بعينها؛ لأن الشريعة سماوية منزلة لسعادة الجميع بلا ظلم ولا محاباة^(٢).

ب - تحرير الرق:

إذا نظرنا إلى مسألة الرق من منظور التكريم الإلهي للإنسان وجدنا أنها طارئة وغير طبيعية؛ ذلك أن الله تعالى سخر للإنسان جميع ما في الكون ليكون في خدمته وطوع حاجته، ولم يسخر الله تعالى صنفاً من البشر ليُسْتَعْبَدُوا أو يُسْتَرْقَوْا من قبل آخرين مثلهم. وإنما يقف مجال التسخير عند حدود الخدمة بمقابل كما هو شأن أصحاب الحرف والمهن. ولكن البشر تجاوزوا حد التسخير إلى الاسترقاق، وقد سجل التاريخ فظائع كبيرة في معاملة الرقيق في أغلب الحضارات القديمة، في مصر والصين والهند وفارس وعند

(١) أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بالاحتطاط المسلمين؟ (ص ٥٧، ٥٨).

(٢) شوقي أبو خليل، الإسلام في قفص الاتهام (ص ٣٢٩).

اليونان والرومان واليهود وغيرهم.

وبلغ بالقانون الروماني أن لم يكن يُعَدُّ الرقيق إنساناً له شخصية ذات حقوق على الإنسانية، بل كان يعتبر من الأشياء كسائر السلع التي يباح الاتجار بها، وكان الرقيق في روما يعرض للبيع عرياناً من كل ما يستره^(١).

وجاء القرآن ليعيد للإنسان كرامته ومكانته، فكان أن أبطلت كل أنواع الظلم والعسف الذي كان يمارس في حق الرقيق، وشرعت من الأحكام ما يكفل خروجهم من دائرة العبودية إلى دائرة الحرية بالتدرُّج.

وقد لاحظ رشيد رضا أن تحرير الرقبة مقصودٌ من مقاصد القرآن، فهو يقول: «... لما ظهر الإسلام، وأشرق نوره الماحي لكل ظلام، كان مما أصلحه من فساد الأمم إبطال ظلم الرقيق وإرهاقه، ووضع الأحكام الممهدة لزوال الرق بالتدريج الممكن بغير ضرر ولا ضرار، ولابغي ولا استكبار؛ إذ كان إبطاله دفعة واحدة متعذراً في نظام الاجتماع البشري»^(٢).

ويستدلُّ رشيد رضا على كون تحرير الرقيق في الإسلام من حقوق البشر عامة أنه يشمل المؤمن والكافر؛ حيث قال تعالى في كفارة القتل الخطأ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]،

(١) شوقي أبو خليل، الإسلام في قفص الاتهام (ص ١٨٢).

(٢) محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي (ص ٣٢٧).

ولكنه قال في كفارة الظهار: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ [المجادلة: ٣]^(١)، مما يوحي بعموم الرقبة وشمولها المؤمن وغير المؤمن.

ج - صون كرامة المرأة :

قال الله تعالى في شأن النساء: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، هذا هو المبدأ الذي قرّره القرآن فيما يتعلق بالمرأة، فهي شقيقة الرجل لها ما له وعليها ما عليه.

والتكريم الذي جعلناه أساساً لتأصيل حقوق الإنسان لا يعقل أن ينال الرجل دون المرأة، أو يستأثر الرجل منه بمقدار زائد، فالتكريم يشملهما معاً؛ ولذلك كان الأمر والتكليف متوجّهاً إليهما بحسب الطاقة والجهد والحال.

كان ظلم المرأة وهضمها حقوقها دأب كثير من الحضارات والثقافات منذ القدم، ويكفي أن نذكر على سبيل التمثيل أن الرجل في المجتمع الهندي قديماً ربما خسر امرأته في القمار، وأن المرأة كان لها في بعض الأحيان عدّة أزواج، فإذا مات زوجها صارت كالموءودة لا تتزوج، وتكون هدفاً للإهانات والتجريح .. وقد تحرق نفسها على إثر وفاة زوجها تفادياً لعذاب الحياة وشقاء الدنيا^(٢).

وفي الحضارة الغربية الحديثة حدثت مفارقة غريبة في شأن المرأة، ففي الوقت الذي ملأ فيه الغرب الدنيا وشغل

(١) المرجع نفسه (ص ٣٣٩).

(٢) أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ (ص ٥٨).

الناس وارتفع فيه صوت المدافعين فيه عن حقوق المرأة وما ينبغي لها من تحرُّر ومساواة للرجل، وخروج عما اعتُبر عاداتٍ وتقاليدَ ظالمةً للمرأة، نجد هذا الغرب قد أهان المرأة حين حوّلها أداة للمتعة ووسيلة للترويح، وجسدًا يباع ويُشترى بأبخس الأثمان، وحملها من المتاعب والمصاعب فوق ما تطيق.

وليس بعيداً عن الصواب ما لاحظته بعض المفكرين من أن « رفع هذا الشعار (حرية المرأة) أو (حقوق المرأة)، وفي هذا الوقت بالذات، وعلى هذا النحو دون غيره، هو في الحقيقة كلمة حق يراد بها باطل، كلمة حق يراد بها إشاعة الابتذال في المجتمع... ابتذال المرأة وتحويلها إلى سلعة رخيصة.. إلى شهوة.. إلى دعاية.. إلى إعلان.. إلى جسد عارٍ.. إلى مجرد مسابقة جمال »^(١).

أما الإسلام فقد رسم للمرأة سبيل الحياة الطيبة التي تتقاسم فيها المغانم والمغارم مع أخيها الرجل دون ضرر ولا ضرار، في إطار من الأخلاق والعفة والاحترام، وعلى أساس من التعاون والتناصح والتكامل بحسب ما هيأها الله له من المهام والتكاليف.

نظّم الإسلام علاقة الرجل بالمرأة إن كانت زوجة، وجعلها أحق الناس بحسن الصحبة إن كانت أماً، ووعد بجزيل الثواب

(١) سالم القمودي، الإسلام كمجاوز للحدثة (ص ١٩٠).

على تربيتها والإنفاق عليها إن كانت ابنة.

ومن ثم ذهب محمد رشيد رضا إلى أن من مقاصد القرآن إعطاء النساء جميع الحقوق التي أعطاها للرجال، إلا ما يقتضيه اختلاف طبيعة المرأة، ووظائفها النسوية من أحكام، مع مراعاة تكوينها والرحمة بها والعطف عليها^(١).

٣ - الحقوق الاقتصادية:

من مظاهر التكريم الإلهي للإنسان أن هيأ له الأرض بما يناسب حاجاته وسعيه، فلم يوجد من بين كل الكواكب التي وصل إليها علم العلماء كوكب يقارب الأرض في مناسبتها للحياة الآدمية حرارة ورطوبة وضوءاً وهواءً وجاذبية وماءً ونباتاً وحيواناً واعتدال أيام وفصول...

ومن مظاهر التكريم الإلهي للإنسان أن جعل الأرض مصدرًا لقوته وما به قوام حياته وحاجاته.

وحاجة الإنسان إلى سد حاجته من الطعام والشراب والملبس والمسكن وغيرها هي التي تولد لديه السعي في تحصيلها، وهو معنى ابتغاء الفضل في القرآن الكريم.

ومع تعدد حاجات الناس وتعقدها وتفاوت مسالك سعيهم في تحصيل رزقهم، ظهرت الحاجة إلى تبادل المنافع والسلع فيما بينهم، ونشأت فكرة المال والتملك والحقوق الاقتصادية.

(١) محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي (ص ٣١٨).

وتتأسس الحقوق الاقتصادية في الإسلام على حق العمل وتكافؤ الفرص وحق التملك والتصرف المالي، في إطار من مقصد عام هو حفظ المال، وإيتاء كل ذي حق حقه في هذا المال بحسب جدّه وجهده، وسعيه وتوفيقه، ولَمَّا كان حب المال طبيعة متأصلة في النفس الإنسانية، وكان التنافس في اكتسابه وتملكه مما جُبِلَ عليه الناس، كان سعي الناس إلى مصالحهم ومنافعهم المالية والاقتصادية مظنة الظلم والبغي والعدوان.

ومن هنا كان اهتمام القرآن بأحكام المال وطرق اكتسابه وتداوله ومسالك المحافظة عليه، وسبل إنفاقه وانتقاله بالإرث والهبات والوصايا والزكاة والصدقات، حفظاً لحقوق الناس في هذا المال ودفعاً لانتهاكها، وحفاظاً على الثروة التي بها قوام الأمة. يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: « ما يُظَنُّ بشريعة جاءت لحفظ نظام الأمة وتقوية شوكتها وعزتها إلا أن يكون لثروة الأمة في نظرها المكان السامي من الاعتبار والاهتمام. وإذا استقرينا أدلة الشريعة من القرآن والسنة الدالة على العناية بحال الأمة وثروتها، والمشيرة إلى أن به قوام أعمالها وقضاء نوائبها نجد من ذلك أدلة كثيرة تفيدنا كثرتها يقيناً بأن للمال في نظر الشريعة حظاً لا يُستهان به »^(١).

(١) محمد الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية (ص ١٦٤).

وسنركز حديثنا في الحقوق الاقتصادية على عنصرين أساسيين هما:

- حق العمل وتكافؤ الفرص. - حق التملك وحفظ المال.

أ - العمل وتكافؤ الفرص:

الأرض هي مائدة الله المليئة بالنعم، سخَّرها لعباده، وهداهم فيها إلى السعي وابتغاء الفضل، وقد وردت آيات كثيرة تدل بوضوح على أن كدَّ الإنسان لاكتساب رِزْقِه، وتدبير معاشِه هو من المباح الذي قد ينزل منزلة الواجب والضرورة التي لا يجوز المسُّ بها.

فمن حق كل إنسان من حيث إنه إنسان منذ وجوده أن يحاول اكتساب رزقه والتماس معاشه من مائدة النعم الإلهية المبسوطة بين يديه في الأرض، فهذا حق يشترك فيه أبناء البشر اشتراكاً سوياً كأسنان المشط، لا يُحرم أحد التمتع بذلك الحق الفطري، ولا يفضل فيه بعضهم على بعض^(١).

والمبدأ الأساسي الذي يحكم حق العمل في الإسلام هو تكافؤ الفرص بين الناس في سعيهم إلى الرزق والمعاش، وذلك انطلاقاً من مبدأ المساواة الذي رأينا أنه أساس متين تقوم عليه حقوق الإنسان في شريعة الإسلام، ذلك أن حرمان بعض الناس أو التمييز بينهم في حق العمل هو ظلم يضاؤ

(١) أبو الأعلى المودودي، نظام الحياة في الإسلام (ص ٥٠).

مقاصد القرآن وروح شريعة الإسلام. فالإسلام لا يكره شيئاً كما يكره اختلال المساواة في أية صورة من الصور، وفي أي وضع من الأوضاع، ولا ينفي شيئاً من محيطه كما ينفي التفاوت بسبب المولد أو الجنس أو اللون أو الثراء. ولا يحل في الإسلام أن يفيد بعض الأفراد أو البيوتات أو الطبقات؛ حتى لا يكون من حقهم الانتفاع ببعض وسائل الرزق ويوصد دونهم باب بعض الحِرَف والمهن، فجميع أبناء البشر يستوون في حق المحاولة لنيل نصيبهم مما بسط الله على أرضه من وسائل الرزق وطرق المعاش^(١).

ب - التملك ومقصد حفظ المال:

التملك هو نتيجة طبيعية للعمل والسعي، وهو من الحقوق المُصانة التي لا يجوز المس بها أو حرمان أصحابها منها بغير وجه حق. وقد جاءت أحكام القرآن بما يحفظ ملكية الناس لأموالهم، فحرّمت السرقة والغصب والجرابة والرشوة والربا، والغش والتدليس، والاستدانة من غير حاجة، ونهت عن إتلاف المال بالإسراف والتبذير، والقمار، وإيتاء السفهاء الأموال، وحرّم إنفاق الأموال فيما هو ضار غير نافع، كإنفاقه على الخمر وما إليه من المحرّمات.

فهذه الأحكام كلها إنما ترمي إلى حفظ المال في ذاته، والحفاظ على تملكه من قبل أصحابه.

(١) أبو الأعلى المودودي، نظام الحياة في الإسلام (ص ٥٠).

« والشريعة الإسلامية فيما شرعته من أحكام مقصدها حفظ المال، جاء فيها التركيز الشديد في حفظ المال على حماية الملكية من أن تتعرض لأسباب القمع والتعدي على اختلافها، وهذا يدل على أن حماية الملكية هي مقصد قطعي من المقاصد التي تفضي إلى حفظ المال »^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] إجمال للأحكام المتصلة بمقصد حفظ حق التملك، وقد تقرر هذا بنص الآية من خلال النهي عن كل صورة من صور استباحة هذا الحق أو تعطيله لأي سبب من الأسباب، حتى إن القرآن حث على كتابة الدين والإشهاد عليه حفظاً لحق التملك، ومنعاً للالتباس المفضي إلى ضياعه أو التفريط فيه. يقول المودودي: « لو تدارسنا القرآن والحديث والفقه الإسلامي لعلمنا علم اليقين أن أكل أموال الآخرين باطل أيًا كان أسلوبه وطريقته، فلا حق لأي فرد أو حكومة أن يتخطى القانون ويستولي على ملكية أحد أو ينال منها أكثر من تلك الحالات التي أوضحها الإسلام نفسه »^(٢).

ولكن القرآن الكريم يذكر الإنسان بأن المال الذي تملكه هو نعمة إلهية استُخلف فيها ليقوم إزاءها بما يحقق مقصد

(١) عبد المجيد النجار، مقاصد الشريعة (ص ١٩٧).

(٢) أبو الأعلى المودودي، الحكومة الإسلامية (ص ٣٤٦).

الاستخلاف وعمارة الأرض بشرع الله وأمره، لا أن يتخذة مطية للبغي وسبباً للظلم والفساد.

٤ - الحقوق السياسية:

تُعَدُّ الحقوق السياسية أخطر أنواع الحقوق الفردية والجماعية على الإطلاق، وما ذلك إلا بسبب التعلق الشديد بين الجانب السياسي والحقوق التي ذكرناها من قبل، فالنظام السياسي هو المسؤول عن حفظ جميع الحقوق الاجتماعية والاقتصادية فضلاً عن الحقوق السياسية ذاتها.

كما أن نظام الحكم هو الذي يضمن - أو يفترض أن يضمن - التجسيد الفعلي والتحقق الواقعي للعدل والمساواة بوصفهما إطاراً عاماً لجميع الحقوق بأنواعها.

وفي المقابل نجد - لو تأملنا - أن عامة حقوق الناس ما هُضمَّت ولا ضاعت إلا لخلل في طبيعة النظام السياسي وعوج في بنيته.

أما إذا كان تفويت الحقوق على أصحابها أمراً مقصوداً من قبل السلطة السياسية الحاكمة بما تسنُّ من قوانين وبما تأتيه من أفعال لا تصبُّ في مصلحة الحق والعدل، فإن الأمر يغدو أخطر. وينبغي أن نذكر هنا أن البشر ما استطاعوا أن ينجزوا ما تحقق في مجال حقوق الإنسان إلا بعد أن أزاحوا النظم السياسية التي كانت جاثمة على صدورهم، والتي كان الإقطاع أبرز عناوينها بما يستتبعه من ظلم وطبقية وتمييز.

والقرآن - وإن هو لم يحدد نظامًا للحكم بعينه - جعل العدل أساسًا للحكم والملك، فأياته صريحة في الأمر بالعدل وتحري الحق، والزجر عن الظلم واتباع الهوى في سياسة الناس وشؤونهم، وسنحصر حديثنا عن الحقوق السياسية في عناصر ثلاثة أساسية هي:

- الشورى. - حرية التعبير. - المواطنة.

أ - الشورى .. حق وضرورة :

الشورى هي أمُّ الحقوق السياسية، والعنوان العريض للسياسة والحكم. إنها « إحدى الخصائص الكبرى لنظام الحكم في الإسلام، ويراد بها استطلاع رأي الأمة أو نوابها في الأمور العامة المتعلقة بها والمشاركة في اتخاذ القرار »^(١). الشورى مسلك يضاد الاستبداد والاستئثار بالرأي اللذين يشكّلان أخطر ما يهدّد الحقوق ويأتي عليها من أساسها.

وقد أشار القرآن الكريم إلى مسلك الاستبداد في قصة فرعون عندما قال لقومه: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩]، وهو قول ينضح بما بلغه الطاغية من استئثار بالرأي دون الأمة، ومنعه كل صوت آخر معارض. ومن هنا فإن الشورى تجسيد فعلي لمبادئ العدل والمساواة، والحرية والتكريم الإلهي للإنسان بما يتفرع عنه

(١) وهبة الزحيلي، العالم الإسلامي في مواجهة التحديات الغربية (ص ٢٦٤).

من تشريف وتكليف، فمن حق هذا الإنسان الحر المكرَّم الذي سُخِّرَ له الكون تسخيرًا أن يستشار في أمر يخصه، وأن يؤخِّدَ برأيه في شأن يهْمُه، حتى يشعر أنه عضو حي ذو قيمة في جسد الأمة، وحتى يكون رأيه رافدًا لنهر الصلاح الجاري، ويطمئن ألاَّ جهة من الجهات ولا هيئة من الهيئات تصدر رأيه، وتُكرِّهه على ما لا يرضاه .

وإذا نظرنا إلى الشورى من هذه الوجهة فإنها سدُّ لباب عظيم من أبواب التنازع والفرقة والخلاف، وضمانٌ للتماسك الاجتماعي لا يستهانُ به على الإطلاق، ثم هي بعد ذلك وسيلة الأداء السياسي المنظم المنسجم.

وإذا سلَّمنا بأن للشورى تطبيقات شتى، وإمكانات متنوعة فإن روحها هي الأخذ برأي الأمة فيما كان متاحًا لتداول الرأي ومجالًا للأخذ والرد، مع الأخذ برأي جمهور الأمة أو من اختارته لينوب عنها. وهنا يغدو الأخذ برأي الأغلبية ضرورة حتمية لا سيما في ما كان مظنة المشاحة والتنازع، وقد استدلَّ بعض المعاصرين على العمل بمبدأ الأغلبية، بمبدأ الترجيح بالكثرة في ترجيح الحديث ومسائل الفقه وشهادة الشهود، وبكون العمل بمبدأ الأغلبية في السياسة معتبرًا ومنصوصًا عليه في انعقاد البيعة نفسها، كما أنه لم يثبت أن رسول الله ﷺ استشار الصحابة في أمر ثم خالف رأيهم أو رأي أكثريتهم فيه، بل الثابت هو العكس^(١).

(١) أحمد الريسوني، الفكر الإسلامي وقضايانا السياسية المعاصرة (ص ٩٨).

ب - المعارضة وحرية التعبير:

إذا كانت الشورى هي المبدأ العام الذي يقوم عليه نظام الحكم في اختيار الأصلح من القرارات والأشخاص، فإن ذلك لا يعني الإجماع المطلق والاتفاق التام بين أهل المشورة من أفراد الأمة أو مَنْ ينوب عنهم في جميع القضايا، فالإجماع على رأي واحد يكاد يكون مستحيلاً بين الناس، فإنهم جُبلوا على الاختلاف...

إذا كان ذلك كذلك فإن ذوي الرأي المختلف - أفراداً وجماعات - من حقهم أن يعبروا عن اجتهاداتهم وآرائهم في أطر منظّمة، ومن حقهم أن لا تصادر أفكارهم ولو اختلفت عن رأي الغالبية، ما دامت ضمن ما يحتمل الخلاف، ويجوز فيه الاجتهاد، وهذا ما يضمن عدم الاستبداد ومصادرة الرأي والحرمان من الحق في حرية التعبير وإبداء الرأي، فإن روح الإسلام الحوار والإقناع بالحجة والبرهان.

فلا شيء أضر على الحرية من منع الرأي المختلف فيما يقبل الاجتهاد، ومن يمنع إنساناً عن إظهار الحق ومساندته؛ فهو بفعله هذا لا يسلبه حقاً أساسياً فحسب، بل يعوقه أيضاً عن أداء فرض من الفروض، ولا بد من حصول الإنسان - في أي ظرف - على هذا الحق من أجل صحة المجتمع وسلامته^(١).

ومن جهة أخرى فإن ضمان هذا الحق هو الذي يكفل

(١) أبو الأعلى المودودي، الحكومة الإسلامية (ص ٣٤٨).

المشاركة الفعّالة لفئات واسعة من الأمة في الشؤون العامة، حين يحسُّ كل فرد أن رأيه معتبرٌ، وحقّه في إبداء رأيه مصون، فهذه المشاركة ليست حقاً من الحقوق فحسب، بل هي واجب من الواجبات، وضرورة من الضرورات.

لقد « جعل الإسلام من الاهتمام بشؤون المجتمع والاشتغال بالقضايا العامة فرض كفاية، بمعنى أنه واجب جماعي أو اجتماعي يقع إثم تركه على الأمة جمعاء »^(١).

وتتأكد ضرورة هذه المشاركة إذا كانت مناهضة لظلم بين تمارسه طائفة من الأمة ولو ادّعت أنها تستند إلى شرعية تضيفها على أفعالها ومسالكتها؛ لأن الحق أحقُّ أن يُتَّبَعَ. ولذلك شرع الإسلام للإنسان الحقَّ الكامل في الاحتجاج على الظلم: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨]؛ بمعنى أن المظلوم له الحق في الاعتراض والاحتجاج على مَنْ ظلمه^(٢). وذلك بالطرق التي لا تؤدي إلى إضرار بحقوق الغير.

ج - المواطنة ووحدة الجنسية السياسية:

ذكرنا أن المساواة بين الناس وتحقيق العدل بينهم أساسان عظيمان يقوم عليهما صرح جميع الحقوق الأخرى الأساسية وما يتفرع عنها من حقوق، ويتأكد أمر المساواة

(١) محمد عمارة، حقوق الإنسان في الإسلام (ص ٧٣).

(٢) أبو الأعلى المودودي، الحكومة الإسلامية (ص ٣٤٧).

بين الناس في الحقوق والواجبات، ويتجسد بين أبناء الدولة الواحدة؛ لأنهم يكونون عندئذ محكومين بقانون واحد يضبط علاقاتهم، ويحدد واجباتهم، ويعيّن حقوقهم، وهو ما يُعرف في الفكر السياسي بحقّ المواطنة.

فهذه المواطنة في الإسلام حق طبيعي لكل إنسان في الدولة، سواء أكان مسلماً أم غير مسلم، وتتطلب هذه المواطنة أداء الواجب وممارسة الحقوق العامة، كحق الجنسية وحق التنقل بين أجزاء الوطن، وحق اللجوء وطلب الأمان ولو لغير المسلم، وحق التقاضي^(١)...

ومن تبعات حقوق المواطنة أنه لا يجوز التفريط في ما به قوام مصالح الناس داخل الدولة، وما تُحفظ به حقوقهم وحياتهم الكريمة، ولا يجوز أن يفاضل بين الناس وفئاتهم وطوائفهم في مسألة الحقوق المقرّرة مما يتعلق بواجبات الدولة تجاههم كرايا.

وقد عدّ محمد رشيد رضا من مقاصد القرآن وحدة الجنسية السياسية بأن تكون جميع البلاد الخاضعة للحكم الإسلامي متساوية في الحقوق العامة كحماية أهلها والدفاع عنهم.

ويتأكد حرص الإسلام على حفظ حقوق المواطنين إذا كان هؤلاء المواطنون من أقليات معينة، وذلك حتى لا يخطر ببال أحد من الحاكمين أو المحكومين أن هؤلاء

(١) وهبة الزحيلي، العالم الإسلامي في مواجهة التحديات الغربية (ص ٦٥).

أقلُّ حقوقًا وأدنى حظوظًا، أو أنهم أقل شأنًا من غيرهم من المسلمين. بل هم مساوون للمسلمين في حقوقهم بدءًا بحق الحياة ومروءًا بالمساواة أمام القانون الجنائي والمدني، وحفظ أعراضهم وثبوت ذمتهم وحريتهم في أداء شعائهم وحقهم في تقاضيتهم في أحوالهم الشخصية بحسب قانونهم الشخصي^(١).



(١) ينظر: شوقي أبو خليل، الإسلام في قفص الاتهام (ص ١٥٠).

ثالثاً:

مقاصد القرآن وضمانات حقوق الإنسان

إن كل تشريع أو قانون بحاجة إلى سلطة منفذة وقوة رادعة تمنع انتهاك ذلك التشريع وتصون خرق القانون أو التلاعب به.

ومن أكثر القوانين والتشريعات حاجة إلى هذه السلطة المنفذة والقوة الرادعة تلك المتعلقة بحقوق الإنسان، ذلك أنه لا معنى لإعلان يقرّ الحقوق ثم لا يكون له وجه من الإلزام، كما هو الأمر في الواقع المعاصر؛ حيث تفتقد القرارات المتعلقة بحقوق الإنسان - في الغالب - إلى السلطة الملزمة والقوة المنفذة، حتى صارت أشبه بأمان ورغبات صُبَّت في ألفاظ وكلمات^(١).

ويضاف إلى هذا ما يلاحظه كل متأمل من تحيز سافر في تطبيق هذه الحقوق على أقوام دون غيرهم، وقصرها على فئة أو فئات دون أخرى.

أما شريعة الإسلام فلم تكتفِ بتقرير حقوق الإنسان في عبارات ومراسيم نظرية، بل جعلت من الضمانات ما يكفل تطبيقها، ويحول دون هدرها أو الاستهانة بها.

(١) أبو الأعلى المودودي، الحكومة الإسلامية (ص ٣٣٧).

ومن أهم الضمانات التي جعلت سياجاً يحفظ حرمة الحقوق ثلاثة مبادئ أساسية:

- عقيدة التوحيد. - مكارم الأخلاق.

- الحدود والعقوبات.

وستناولها فيما يأتي:

١ - عقيدة التوحيد:

التوحيد - وقبل أن يكون ضماناً لحقوق الإنسان - هو أساس التصور المبدئي للإنسان ذاته، وما يتفرع عن هذا التصور من تكريم وتشريف، ومن أمانة واستخلاف وتكليف. فعقيدة التوحيد هي أساس المساواة بين الناس؛ لأنها تقوم على اعتقاد أن الناس جميعاً عباد الله وأنهم أبناء أب واحد وأم واحدة، فهم إخوة بعضهم لبعض وليس بعضهم أرباباً لبعض^(١).

وأهم ما تحققه عقيدة التوحيد في باب حقوق الإنسان أنها تحرر الإنسان من أن يكون عبداً لغير الله، بل إن التحرر من العبودية لغير الله بعقيدة التوحيد أول المقاصد الشرعية الكلية التي تقدم بها جميع المرسلين - عليهم الصلاة والسلام - إلى جماهير المخاطبين وآحادهم، وعامتهم وخاصتهم على اختلاف أجناسهم وانتماءاتهم ومراكزهم

(١) يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن؟ (ص ٨٥).

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية... ومتى تحقق الإنسان بـ « مقصد الموافقة والتعبد على الوجه المطلوب تحقق بأعلى مقامات التحرر التي تمنعه من الاستعباد لأي كان، وتدفعه إلى التمرد على مختلف الآلهة المزيفة بدءاً بآلهة الأهواء، ومروراً بآلهة الأصنام، وانتهاءً بآلهة البشر... وهو ما يقطع بأن التحرر من العبودية لغير الله بتوحيده هو أول المصالح الإنسانية التي لا يجوز التنازل عنها، ولا المساومة بشأنها ولا السكوت عن المطالبة بتعميمها؛ إذ بقدر ما يتحرر الناس من العبودية لغير الله يحققون إنسانيتهم وكرامتهم»^(١).

وفي قصة موسى مع فرعون شاهد لهذا، فإن فرعون ما استضعف الناس وفرّق بينهم وجعلهم شيعاً إلا بعد أن صرفهم عن العبودية لله إلى العبودية لنفسه فقال لهم: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٨٣].

ولما جاء موسى ﷺ تلازم في دعوته الصّدع بتوحيد الله وإبطال ألوهية فرعون المزعومة، وتحرير بني إسرائيل من نير العبودية لفرعون وإذلاله لهم، وهذا يؤيد ما سقناه آنفاً من تلازم عقيدة التوحيد وتحرر الإنسان.

وتتضمن عقيدة التوحيد الإيمان بالآخرة وما فيها من وعد ووعد، وهي ضرورة لإصلاح الدنيا وحفظ الحقوق والحدود، بصورة إيجابية تحفظ على الإنسان أمنه النفسي

(١) عبد النور بزا، مصالح الإنسان (ص ٢٣٨).

والمجتمعي، فـ « لولا أن الله تعالى قرَّرها ورَكَّز لواءها لتحوَّلت الحياة الدنيا إلى غابة وحوش، وفوضى وصراع لا سبيل فيه إلا انتحار المجتمعات، واندحار الحضارات، وانهيار الحقائق والقيم التي تقوم عليها الحياة، وتحوُّلها إلى سُعار مدمر، وشجار رهيب؛ ولذلك يربط القرآن كثيرًا بين مظاهر الخلل والفساد وبين إنكار الآخرة أو إهمال شأنها »^(١).

٢ - مكارم الأخلاق:

الأخلاق ملازمة لدعوة التوحيد، فالتوحيد هو أحد وجهي الدين، والأخلاق في مفهومها الشامل هي وجهه الثاني. وإذا كان التوحيد هو الضمانة الأولى للحقوق فإن الأخلاق هي ضمانتها الثانية، إنها سياج يصون تلك الحقوق ويحفظها أن تُستباح أو يُعتدى عليها.

* وأهم سمة لأخلاق الإسلام: أنها ثابتة ثبات التوحيد نفسه، لا تتقدم عليها المصالح والعواطف، ولا تؤخرها الأغراض والأهواء، فالذي يقتضيه الإسلام اقتضاءً ويطلب أبناءه بالاستمساك به ألاَّ يَحِيدُوا عن المبادئ الخُلُقِيَّة المبنية على الصدق المحض والعدالة الناصعة، والأمانة النقية الطاهرة، ولا يرضى الغدر والغش والاعتداء تحقيقًا لمصلحة مهما كانت، بل يؤثر الحق والأمانة والعدل على المآرب والأهواء والأغراض في كل ما يعرض له من

(١) عبد الستار فتح الله سعيد، المدخل إلى التفسير الموضوعي (ص ٢٤٣).

الأوامر والصلوات^(١).

* والسمة الثانية التي تجعل أخلاق الإسلام ضماناً للحقوق: هو شمولها لكل مجالات الحياة فضلاً عن مجالات الحقوق، فما من فعل يأتيه الإنسان إلا وللأخلاق فيه نصيب، وما من علاقة من علاقات الإنسان في هذا الكون إلا وللأخلاق فيها قول وحكم، وما من زمان ومكان يُضْمَنُ الإنسان إلا وحكم الأخلاق فيهما قائم نافذ.

* أما أعظم الأسباب والخصائص التي تجعل من مكارم الأخلاق ضماناً للحقوق: فهو أنها تعلو بهمة الإنسان من درجة الحق إلى درجة الواجب، وتجعل هذه الهمة منشغلة بالخير والجمال قبل انشغالها بالحق، ومتطلّعة إلى مرتبة الإحسان غير مقتصرة على مرتبة العدل.

٣ - الحدود والعقوبات:

لا يمكن الحديث عن الحقوق دون الحديث عن الواجبات ومعنى ذلك أن كل حق لفرد أو جماعة من الناس هو - من جهة أخرى - واجب في حق بقية الأفراد تجاه هذا الفرد أو هذه الجماعة وفق علاقة متبادلة متشابكة لا يكاد الحق والواجب فيها ينفصلان.

ولكنَّ الإخلاق بنظام الحقوق والواجبات وارد، لا سيما إذا ضعف وازع الإيمان والأخلاق، وغلب داعي الهوى

(١) أبو الأعلى المودودي، نظام الحياة في الإسلام (ص ٢٨، ٢٩).

والطغيان... وهنا تأتي أحكام الشريعة والقرآن برادع من نوع خاص هو رادع الحدود والعقوبات.

وبالنظر إلى أن من أعظم مقاصد الدين تعيين أنواع الحقوق لأنواع مستحقيها - كما قال ابن عاشور^(١) - فإن مقصد ما شرع من الحدود والعقوبات هو حفظ هذه الحقوق لأصحابها؛ فالعقوبة ليست انتقاماً أو عقاباً مقصوداً لذاته بقدر ما هي ردع وضمان للحقوق حتى لا يُستهان بها أو يُعتدى عليها؛ تحقيقاً للخير والصلاح ومنعاً للشر والفساد، يقول العلامة ابن عاشور: « الشريعة ليست بنكاية، فجميع تصرفاتها تحوم حول إصلاح حال الأمة في سائر أحوالها، والزواج والعقوبات والحدود ما هي إلا إصلاح لحال الناس... وذلك أن من أكبر مقاصد الشريعة حفظ نظام الأمة، وليس يُحفظ نظامها إلا بسد ثلمات الهرج والفتن والاعتداء، وأن ذلك لا يكون واقعاً موقعه إلا إذا تناولته الشريعة ونفذته الحكومة، وإلا لم يزد الناس بدفع الشر إلا شرّاً... »^(٢).

وهكذا فإن من أهم ما يميز المنظور القرآني لحقوق الإنسان أنه لم يكتفِ بتقرير هذه الحقوق في عبارات ومراسيم نظرية، بل شرع من الضمانات ما يكفل تطبيقها، ويحول دون هدرها أو الاستهانة بها.

(١) محمد الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة (ص ١٤٦).

(٢) المرجع نفسه (ص ٢٠٥).

خاتمة

لا ريب أن الاستخلاف الذي عليه مدار حياة الإنسان ووجوده لا يمكن أن يتحقق من دون عمارة للأرض، وأخذ بأسباب القوة، والاستفادة مما سخر الله فيها. وكل ما يُشترط في ذلك أن يكون سعي الإنسان باسم الله من غير انفكاك عن شرعه، ولا تمرّد على أمره.

وإذا كان القرآن الكريم قد تضمّن بياناً لسنن الله في الحضارات والعمران، وحديثاً عن الأمم السالفة، وكيف ازدهرت حضارتها وكيف تراجعت وانحسرت، وبقيت آثارها شاهدة عليها ناطقة بالعبر والعظات، فإن فيه نماذج أخرى من التاريخ البشري ترسم أمام المتدبّر معالم واضحة للعمران الرسالي الذي يجمع بين إقامة الحضارة والعمران، والقيام بحق الرسالة والأمانة.

ولا شك أن ترسّم مقاصد القرآن هو الخطوة الأولى في مسيرة استئناف الشهود الحضاري والقيام بحق الشهادة والسير في رحاب التدبر إلى آفاق التدبير، وإن واقع المسلمين اليوم ناطق بحاجتهم الماسّة إلى تمثّل هذه المعاني، واستثمار كلّ الأبعاد التي ينطوي عليها الكتاب العزيز للانطلاق به إلى الآفاق، ووصل ما انقطع...

وإن تفعيل المنظور المقاصدي للقرآن لا تنحصر ضرورته

وحسناته في معالجة مشكلات الأمة الإسلامية وأزماتها الحضارية، بل هو أمل الإنسانية في التخلص - أو التخفيف - من آثار المشكلات المعاصرة التي تهدد البشرية ويستنفر العالم قواه من أجلها، بعد أن أثبت الواقع أن المحاولات العديدة التي أرادت تصحيح المسار المتأزم الذي قاد إليه الواقع الكوني الغربي لم يكتب لها النجاح؛ لأنها نبعت من صلب هذا الواقع الذي استهدفت علاجه، وأن الأمر بحاجة إلى مصدر كوني متعال مهيمن غير خاضع لهذا الواقع الحداثي العليل، وليس ذلك إلا للقرآن بقيمه ومقاصده.

ولعل هذا هو المسار الذي ينبغي أن تسلكه وتركز عليه اجتهادات العلماء المتدبرين وجهود العاملين المدبرين.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل



فهرس المراجع

- ١ - الإلتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: فؤاز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).
- ٢ - أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع، عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الإسراء، قسنطينة، الجزائر، ط ٢ (د ت).
- ٣ - الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية، القاهرة (١٣٧٥هـ).
- ٤ - الإسلام كمجاز للحدثة ولما بعد الحدثة، سالم القمودي، دار الانتشار العربي، بيروت، ط ١ (٢٠٠٨م).
- ٥ - إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ١ (١٩٩٣م).
- ٦ - إلى القرآن الكريم، محمود شلتوت، دار الشروق، القاهرة (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).
- ٧ - أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ط ١ (١٩٩٠م).
- ٨ - البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).
- ٩ - تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس (١٩٨٢م).
- ١٠ - التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، ط ١ (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).
- ١١ - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، يوسف بن عبد البر النمري القرطبي، تحقيق: سعيد أحمد أعراب، وزارة الأوقاف والشؤون

- الإسلامية، المغرب، ط ٢٤ (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).
- ١٢ - الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١ (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).
- ١٣ - الجامع لشُعَبِ الإيمان، أبو بكر بن الحسين البيهقي، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد ناشرون، المملكة العربية السعودية، ط ١ (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م).
- ١٤ - الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن الثعالبي، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١ (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).
- ١٥ - جواهر القرآن، أبو حامد الغزالي، تحقيق: محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط ٣ (١٤١١هـ/ ١٩٩٠م).
- ١٦ - حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي، مكتبة الحقيقة، إسطنبول (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).
- ١٧ - الحكومة الإسلامية، أبو الأعلى المودودي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر (١٩٩٠م).
- ١٨ - خصائص الشريعة الإسلامية، عمر سليمان الأشقر، قصر الكتاب، البلدة، الجزائر (د ت).
- ١٩ - روح الحداثة، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١ (٢٠٠٦م).
- ٢٠ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د ت).
- ٢١ - الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد، يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة (د ت).
- ٢٢ - صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).

- ٢٣ - صحيح مسلم بشرح النووي، الإمام محيي الدين أبي زكريا يحيى ابن شرف النووي، خرّج أحاديثه: صلاح عويضة، وراجعته: محمد شحاتة، دار المنار، القاهرة (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).
- ٢٤ - العقيدة في الله، عمر سليمان الأشقر، قصر الكتاب، البليلة، الجزائر (د ت).
- ٢٥ - علم المقاصد الشرعية، نور الدين بن مختار الخادمي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط ١ (١٤٢١هـ/٢٠٠١م).
- ٢٦ - الفكر الإسلامي وقضايانا السياسية المعاصرة، أحمد الريسوني، دار الكلمة، المنصورة، مصر (١٤٣١هـ/٢٠١٠م).
- ٢٧ - الفكر المقاصدي وقضايا السياسة المعاصرة، أحمد الريسوني، دار الكلمة، المنصورة، ط ١ (١٤٣١هـ/٢٠١٠م).
- ٢٨ - في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ٢٧ (١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
- ٢٩ - قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين بن عبد السلام، دار البيان العربي، القاهرة، ط ١ (١٤٢١هـ/٢٠٠٢م).
- ٣٠ - قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط ٢ (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- ٣١ - كثر العمال في سنن الأقوال والأفعال، ضياء الدين المتقي، تحقيق: محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية، بيروت (د ت).
- ٣٢ - كيف نتعامل مع القرآن الكريم؟ يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ط ٣ (٢٠٠٠م).
- ٣٣ - لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت (د ت).
- ٣٤ - المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر (د ت).
- ٣٥ - مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، المكتبة العصرية،

- صيدا، بيروت (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).
- ٣٦ - المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة (١٤١١هـ/١٩٩١م).
- ٣٧ - المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١ (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
- ٣٨ - مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، ط ١ (١٩٩٧م/١٤١٧هـ).
- ٣٩ - المسند الجامع، عواد معروف وآخرون، دار الجيل، بيروت، ط ١ (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).
- ٤٠ - معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١ (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
- ٤١ - مفاتيح تدبر القرآن، خالد بن عبد الكريم اللاحم، الدار المتحدة، دمشق، ط ٢ (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
- ٤٢ - مفاتيح للتعامل مع القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط ٣ (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
- ٤٣ - مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢ (٢٠٠٨م).
- ٤٤ - مقاصد الشريعة ومكارمها، غلال الفاسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب (١٤١١هـ/١٩٩١م).
- ٤٥ - المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، يوسف حامد العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، ط ٢ (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- ٤٦ - مقاصد القرآن، محمد الصالح الصديق، دار البعث، قسنطينة (١٤٠٣هـ/١٩٨٢م).
- ٤٧ - مقاصد القرآن الكبرى، مدحت ممدوح القصراوي، دار الكلمة، المنصورة، ط ١ (١٤٣١هـ/٢٠١٠م).

- ٤٨ - مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، عبد الكريم حامدي، دار ابن حزم، بيروت، ط ١ (١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م).
- ٤٩ - مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار المعرفة، بيروت، ط ٢ (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).
- ٥٠ - منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم، بدر بن ناصر البدر، دار الهدي النبوي، المنصورة، ط ١ (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).
- ٥١ - الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، دار ابن عفان، الخبر، السعودية، ط ١ (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).
- ٥٢ - نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، ط ٨ (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).
- ٥٣ - نظام الحياة في الإسلام، أبو الأعلى المودودي، دار الشهاب، باتنة، الجزائر (١٩٨٨م).
- ٥٤ - نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١ (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).
- ٥٥ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (د.ت).
- ٥٦ - الوحي المحمدي، رشيد رضا، دار الكتب، الجزائر (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).



نُبذة عن المُولف

معلومات شخصية:

* مسعود أبو دوخة.

* أستاذ التعليم العالي / قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة سطيف ٢ / الجزائر.

أهم الشهادات العلمية:

* شهادة الليسانس، في اللغة والأدب العربي، جامعة سطيف، سنة (١٩٩٦ م).

* ماجستير في اللسانيات من جامعة الجزائر (٢٠٠٠ م).

* دكتوراه في البلاغة العربية من جامعة قسنطينة، الجزائر (٢٠٠٩ م).

* شهادة التأهيل الجامعي من جامعة ورقلة، الجزائر (٢٠١٢ م).

* إجازة في القرآن الكريم حفظاً وتلاوة من دمشق (٢٠٠٩ م).

المسار الوظيفي:

* أستاذ القرآن الكريم، بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، بقسنطينة (١٩٩٧ - ١٩٩٨ م).

* أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة بجاية

(٢٠٠٠ - ٢٠٠٥ م).

* يعمل حاليًا أستاذًا محاضرًا بقسم اللغة والأدب العربي بجامعة سطيف ٢.

أهم الهيئات العلمية:

* عضو مختبر المصطلحات اللغوية والبلاغية في التراث العربي.

* خبير محكم لدى مجلات أكاديمية متخصصة.

* ناقش وأشرف على عدد من البحوث العلمية في مرحلتي الماجستير والدكتوراه.

* عضو هيئة التدقيق اللغوي لمجلة الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سطيف ٢.

أهم المنشورات العلمية:

١ - الكتب:

* عناصر الوظيفة الجمالية في البلاغة العربية.

* السياق والدلالة.

* البلاغة العربية بين الإمتاع والإقناع.

* نصوص في فقه اللغة.

٢ - المقالات:

* جدل التداول والتخييل في خطاب البلاغة

العربية، مجلة جذور النادي الأدبي بجدة، العدد (٣٧)،

(شعبان ١٤٣٥هـ / جوان ٢٠١٤م).

* الأسس التواصلية في البلاغة العربية، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة محمد لمين دباغين، سطيف (٢٠١٥م).
* استلهام الرموز الدينية في ديوان اللهب المقدس لمفدي زكريا، مجلة الواحات، جامعة غرداية، العدد (٢١)، (صفر ١٤٣٦هـ / ٢٠١٤م).

* القراءات المعاصرة للقرآن الكريم بين الاستشراق والحداثة، مجلة بونة، مارس (٢٠١٥م).

* السرقات الأدبية وسؤال الإبداع في التراث النقدي والبلاغي في ضوء مفهوم التناص، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ٨ مايو ١٩٤٥، قالمة، الجزائر، ديسمبر (٢٠١٥م).

* معالم التجديد المصطلحي عند طه عبد الرحمن، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد (٨٣)، (٢٠١٦م).

الاهتمامات الحالية والتطلعات البحثية:

الفكر الإسلامي في أبعاده الحضارية وقضايا تجديد الخطاب الديني.

الكتاب في سُطورٍ

لا شك أن ترسّم مقاصد القرآن هو الخطوة الأولى في مسيرة استئناف الشهود الحضاري، والقيام بحق الشهادة، والسير في رحاب التدبّر إلى آفاق التدبير، وإن واقع المسلمين اليوم ناطق بحاجتهم الماسّة إلى تمثّل هذه المعاني، واستثمار كل الأبعاد التي ينطوي عليها الكتاب العزيز للانطلاق به إلى الآفاق. وإن تفعيل المنظور المقاصدي للقرآن لا ينحصر في معالجة مشكلات الأمة الإسلامية وأزماتها الحضارية، بل هو أمل الإنسانية في التخلّص - أو التخفيف - من آثار المشكلات المعاصرة التي تهدّد البشرية ويستنفّر العالم قواه من أجلها، بعد أن أثبت الواقع أن المحاولات العديدة التي أرادت تصحيح المسار المتأزم الذي قاد إليه الواقع الكوني الغربي لم يكتب لها النجاح. ولعل هذا هو ما ينبغي أن تسلكه وتركز عليه اجتهادات العلماء المتدبّرين وجهود العاملين المدبّرين.

دار السلام للنشر والتوزيع

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب. ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٣٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٢٢٨٢٠ - ٢٠٨٠٣٨٧٦

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٢٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٢٢٢٠٤ (٢٠٢)

www.daralsalam.com info@daralsalam.com

ISBN: 978-977-717-454-3



9 789777 174541 >

